رَابِطَةُ ٱلعَالَمِ ٱلإِسْلَامِيِّ
الهَيْئَةُ ٱلعَالَمِيَّةُ لِتَحْفِيظِ ٱلقُرْآنِ ٱلكَرِيمِ
قِسْمُ ٱلبُحُوثِ وَٱلمَنَاهِجِ



تأملات في سورة الكهف

إعداد

د. عبد الله بن علي بصفر

اعتنى بها وأعدّها للطباعة

د. محمد مصطفى أحمد شعيب

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ - ٢٠١٤ م

الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم
جـــدة – حـــي النســـيم
طريق الملك عبد الله


بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد:

فإن التأمل في سورة الكهف له أهمية كبيرة؛ لأنها تُقرأ كل يوم جمعة، ولها فضل تنوير الأسبوع بنور الله تعالى، فلذلك ينبغي للمسلم أن يحرص على تدبرها وفهمها، ليدرك سرَّ اختيارها لتُقرأ في كل جمعة، وليعلم السبب في كونها نجاة للمسلم من فتنة الدَّجال؛ إذا قرأ عشر آيات من أولها وعشر آيات من آخرها، كما سيأتي بيانه وتوضيحه في ثنايا هذا الكتاب.

ومن الطبيعي أن يحفظ الكثير من المسلمين هذه السورة، بسبب تكرارها كل أسبوع، وحفظهم لها يدفعهم إلى قراءتها أو قراءة مقاطع منها في صلواتهم خلال الأسبوع، وبالتالي لا بد من فهم معناها، حتى يزداد المسلم خشوعاً وتأثراً عند تلاوتها أو سماعها.

كما أن سورة الكهف سبب في ازاحة الهموم والغموم عن المسلم، إذا قرأها وتدبرها، لما فيها من القصص، وبيان بعض صور الابتلاء للمؤمنين، وكيف استقبلوا ذلك بالصبر والرضا واليقين.

والمسلم - في كل مكان وزمان – في امتحان وابتلاء دائم، سواء كان ذلك بالسراء أو الضراء، وقد سُئل النبيُّ ﷺ: أيّ الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم**

الأمثل فالأمثل، فإذا كان الرجل صلب الدين يبتلى الرجل على قدر دينه، فمن ثخن دينه ثخن بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه»[1].

وهذه السورة المباركة سميت بسورة الكهف إشارة لأبرز قصة فيها، وهي قصة أصحاب الكهف، والتي ابتلى الله فيها بعض عباده المؤمنين، وجعل لهم آية وعبرة – كما سيأتي شرحه وبيانه – .

لأجل كل ما تقدم، فقد رأيت أن أطبع عدداً من الخطب المنبرية، التي تحدثت فيها عن تفسير سورة الكهف، بعد ضبطها وتحريرها، لتكون عوناً للمسلم على تأمل هذه السورة المباركة، وتدبر ما ورد فيها، وأخذ الدروس والعبر منها في واقع حياته، ليستنير بها، ويهتدي بهدى الله تبارك وتعالى.

وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل، وسائر أعمالي؛ خالصة لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين .

وكتبه :

د. عبد الله بن علي بصفر

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١٢٠) (١/ ٩٩) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين.



أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، نستعين بالله ﷻ ونبدأ في تأملات ودروس ونظرات في سورة الكهف، هذه السورة العظيمة التي نقرؤها كل جمعة امتثالاً لأمر النبي ﷺ وهديه وسنته .

واليوم نتحدث عن فضائل هذه السورة، وعن أسرارها، وعن سبب نزولها لتكون الفاتحة والبداية في تفسير هذه السورة العظيمة بإذن الله تبارك وتعالى، نسأله ﷻ التيسير والتوفيق .

عن البراء بن عازب ﷺ قال: «كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشطنين، فتغشَّته سحابة، فجعلت تدنو وتدنو، وجعل فرسه ينفر، فلَمَّا أصبح أتى النَّبيَّ ﷺ فذكر له ذلك فقال: «**تلك السكينة تنزلت بالقرآن**»[1]، فقراءة سورة الكهف تتنزل بها السكينة، وتتنزل بها ملائكة الله تبارك وتعالى بالرحمة والرضا والرضوان، والرجل الذي كان يقرأ سورة الكهف هو أسيد بن حضير الأنصاري ﷺ .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ حفظ عشر آيات**

(١) رواه البخاري (٥٠١١) كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف.

مِنْ أول سورة الكهف عُصم مِنَ الدجال»، وفي روايةٍ: «**مِنْ آخر سورة الكهف**»[1].

فمن حفظ العشر آيات من أول سورة الكهف، ومن آخرها، حفظته من فتنة المسيح الدجال لما في أولها وآخرها من العجائب والآيات، ومن تدبر أوائلها وخواتمها حفظه الله ﷻ من فتنة الدجال؛ لأن فيها الحديث عن الإيمان، وفيها تصحيح العقيدة، وتصحيح الفكر، وتقويم الأخلاق، إن هذه الآيات تفضح الكذب والزور والدَّجل والشرك والكفر، فهي طريق من طرق الثبات لأهل الإيمان في أوقات الفتن، لاسيما فتنة الدجال.

وفتنة الدجال هي أعظم فتنة تمر على الإنسان منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة، ولذلك نستعيذ بالله تعالى منه في كل صلاة، في الدعاء الذي علَّمنا إياه النبي ﷺ، فعن أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يدعو ويقول: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال**»[2].

وعن النواس بن سمعان ﷺ، قال: ذكر رسول الله ﷺ الدَّجَّال ذات غداة، فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «**ما شأنكم؟**» قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة، فخفضت فيه

---

(١) رواه مسلم (٨٠٩)، وأبو داود (٤٣٢٣)، والتِّرمذي (٢٨٨٨).

(٢) رواه البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨).

ورفعت، حتى ظننا في طائفة النخل، فقال: «**غيرُ الدجالِ أخوفُني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم، فامرؤٌ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شابٌّ قَطَطٌ، عينهُ طافِئَةٌ، كأني أشبهه بعبدِ العُزَّى بن قَطَنٍ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف**»[1].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له مِنَ النور فيما بينه وبين البيت العتيق**»، وفي روايةٍ: «**مَنْ قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، أضاء له مِنَ النور ما بين الجمعتين**»[2].

أي: نوَّر الله بصيرته، ونور بصره، ونور قلبه، وسار على بينة وبصيرة من الله تعالى، فيختار الطريق الصحيح، ولا يتردد ولا يتشكك، ولا يضل ولا يسقط، وإنما يسير على نور من الله ﷻ، وعلى هداية من الله سبحانه وتعالى، يذلل الله له كل عقبة، ويسهل عليه كل عسير، طوال أسبوع كامل، من الجمعة إلى الجمعة، ببركة قراءته لسورة الكهف، وكل إنسان يحتاج إلى معونة الله ﷻ وتوفيق الله ﷻ في أمور الحياة فيها من الصعوبة وفيها من المشقة وفيها من التعب الشيء الكثير .

---

(١) رواه مسلم (٢٩٣٧) ومعنى (قطط) أي شديد جعودة الشعر.

(٢) رواه الدارمي (٣٤٥٠) في فضائل القرآن، والحاكمُ (٢١١٦) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٦٢٦).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : «**من قرأ سورة الكهف كما أنزلت، كانت له نوراً يوم القيامة من مقامه إلى مكة، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يسلط عليه**»(١).

وقوله ﷺ : «**من قرأ سورة الكهف كما أنزلت**» أي: أنه لا يقرأها بسرعة وبلا إتقان وتجويد، بل يحسن تلاوتها، ويرتلها كما أنزلها الله جل وعلا، فلا يبدل الحروف ولا الحركات، وإنما يقرأها كما أنزلت على النبي ﷺ .

فيُستحب لك أخي المسلم أن تقرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أو ليلتها، والحكمة في تخصيص قراءتها في يوم الجمعة: أن فيها ذكر أحوال يوم القيامة، ويوم الجمعة شبيه بيوم القيامة لما فيه من اجتماع الناس، ولأنه اليوم الذي تكون فيه الساعة كما أخبر النبي ﷺ، فناسب أن يقرأ المسلم سورة الكهف لما فيها من هذه الأمور الدالة على يوم القيامة .

وأما سبب نزولها : فقد ذكر ابن إسحاق عن ابن عباس ﷺ قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٧٥٢) (٢٠٧٢) وقال: « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢٦٥١) .

التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فَرُوا فيه رأيَكُم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طوَّاف، بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك، فإنه نبي فاتبعوه، وإن هو لم يخبركم، فهو رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش: قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ : «**أخبركم غداً بما سألتم عنه**» ولم يستثن، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يُحْدِثُ الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزَنَ رسولَ الله ﷺ مُكْثُ الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلم به أهل مكة.

ثم جاءه جبرائيل عليه السلام بسورة الكهف، وفيها معاتبته للنبي على حزنه وأسفه على عدم إيمان الكافرين والمشركين[1]، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية

---

(١) وذلك قوله سبحانه: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

والرجل الطوَّاف[1]، وقول الله عز وجل : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2].

نسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا قراءة القرآن مع التدبر والتأمل والنظر وأخذ العبر والدروس إنه سميع قريب مجيب الدعوات .

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه .



(١) أي : قصة ذي القرنين .

(٢) الإسراء: ٨٥ .

والجواب عن سؤال الروح جاء في سورة الإسراء – قبل سورة الكهف مباشرة، بحسب ترتيب المصحف –، وهناك تناسب بين سورة الإسراء وسورة الكهف، فسورة الإسراء ابتدأت بالتسبيح ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ [الإسراء: ١]، وسورة الكهف ابتدأت بالتحميد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ [الكهف: ١]، والتسبيح والتحميد متواصلان متتابعان (سبحان الله، والحمد لله) (سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)، فجاءت هاتان السورتان متواصلتان تُجيبان اليهود فيما سألاه من تلك القصص الغابرة التي فيها العبر والعظات .

فواتح سورة الكهف

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، بعد أن تحدثنا عن فضائل سورة الكهف وسبب نزولها، نتحدث اليوم بإذن الله تبارك وتعالى في تفسير هذه السورة العظيمة التي نكررها كل أسبوع، مما يُحتِّم علينا فهمها وتدبرها ومن ثمَّ العمل بما فيها، وأن نأخذ منها العبر والدروس لتنير لنا حياتنا، ولنستفيد منها في واقعنا.

بدأ الله هذه السورة العظيمة بالحمد، فقال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾[1]، وقد بدأ الله سبحانه عدداً من السور بالحمد، وهي سور: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، هذه الخمس سور بدأت بالحمد.

والحمد هو الثناء على الله تبارك وتعالى، ثناء باللسان، وحمد بالعمل والسلوك، بأداء ما أمر الله تبارك وتعالى، والانتهاء عما نهى الله ﷻ عنه .

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾[2] يحمد الله ﷻ نفسه على نعمة إنزال الكتاب، قال ابن كثير رحمه الله: (تقدَّم في أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة

---

(١) الكهف: ١ .

(٢) الكهف: ١ .

عند فواتح الأمور وخواتيمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد، صلوات الله وسلامه عليه؛ فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض، إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم، بيناً واضحاً جلياً نذيراً للكافرين وبشيراً للمؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قدَّم عبده، لأنه الواسطة التي نقل من خلالها القرآن العظيم إلينا بكل أمانة، فقدَّمه لأمانته وصدقه، ولمسئوليته العظيمة صلوات ربي وسلامه عليه، ولأن المشركين عندما سألوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح ؛ كانوا منكرين لنبوته أصلاً، فأول ما نزلت هذه السورة رداً عليهم في إنكارهم، بإثبات رسالته ونبوته وأنه جاء بكتاب منزل عليه من عند الله عز وجل .

وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾[2] أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا ميلاً، بل جعله معتدلاً مستقيماً؛ ولهذا قال:﴿قَيِّمًا﴾[3]أي: مستقيماً، نفى عنه الاعوجاج أولاً، ثم أكَّد على استقامته ثانياً.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٣٥) .

(٢) الكهف: ١ .

(٣) الكهف: ٢ .

فالقرآن لا اختلاف فيه ولا تناقض، فترى القرآن من أوله إلى آخره يأمر بالخير وينهى عن الشر، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ليس فيه أمر بالمنكر، ولا دعوةٌ للشر، ولا نهي عن خير أو معروف، فلله ﷻ الحمد على هذا الكتاب العظيم الذي هو نعمة على أهل الأرض جميعاً، ومع ذلك ما قدرنا هذا القرآن حق قدره، فمن منا يقرأ القرآن، ومن منا إذا قرأ القرآن يتدبره ويفهمه، ومن منا إذا قرأه وفهمه عمل به في حياته، نسأل الله ﷻ أن يجعلنا ممن يقرأ القرآن ويحفظه ويتدبره ويفهمه ويعمل به .

والمسلم مطالب أن يصلح شأنه مع القرآن فإن كان هاجراً للقرآن، كما قال ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[1]؛ فعليه أن يخصص كل يوم وقتاً ولو يسيراً يقرأ فيه كلام الله ﷻ، وإن كان لا يحسن التلاوة فليتعلم، فالنبي ﷺ يقول: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» [2]، ثم ليتدبر ما يقرأ ولا يكن همّه آخر السورة أو الجزء، وإنما يقرأ ليتدبر، فإذا تدبر خشع، وبكت عينه من خشية الله، وتغيَّر سلوكه، واستقام على طاعة ربه جل وعلا .

وقوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾[3] أي: إنزال الكتاب على النبي ﷺ جاء لينذر من خالفه وكذَّبه ولم يؤمن به، ينذره بأساً شديداً، أي: عقوبة عاجلة

---

(١) الفرقان: ٣٠ .

(٢) رواه البخاري (٥٠٢٧) من حديث عثمان بن عفان ﷺ.

(٣) الكهف: ٢ .

في الدنيا، وآجلة في الآخرة ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: من عند الله الذي لا يعذّب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد .

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بهذا القرآن ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الذين صدَّقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾[1] أي: مثوبة عند الله جميلة، فالأجر الحسن هو الأجر الجميل الطيب، وغايته الجنة التي عرضها السماوات والأرض ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾ أي: خالدين في ثوابهم عند الله، وهو الجنة، خالدين فيه ﴿أَبَدًا﴾[2] دائماً لا زوال له ولا انقضاء[3].

وتأمل قرن الله تعالى للإيمان بالعمل الصالح في قوله تعالى:﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فالعمل الصالح دليلٌ على صدق الإيمان، فمن ادَّعى الإيمان فعليه أن يبرهن على صدق دعواه بالعمل الصالح، من صلاة وصوم وحج وزكاة وتلاوة قرآن وذكر لله تعالى وقيام ليل وصلة رحم وسائر العبادات والطاعات.

وقوله جل وعلا: ﴿يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: إنهم مستمرين في عمل الصالحات، لا ينقطعون عنها حتى يلقوا ربهم تبارك وتعالى .

---

(١) الكهف: ٢ .

(٢) الكهف: ٣ .

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٣٥) .

والعمل الصالح يشمل كل عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله ﷻ، وكل ما يحبه الله تعالى من الأقوال والأفعال الظاهرة والخفية، وينبغي أن يشتمل العمل الصالح على شرطي الإخلاص لله تعالى والمتابعة لرسوله ﷺ، وكل عمل مباح احتسب فيه المرء وابتغى به الأجر من الله أصبح طاعة وقربة، فعملك ووظيفتك إن قصدت منها أن تعفَّ نفسك عن الحرام، فأنت في عمل صالح، وحتى إجازتك مع أهلك وأبنائك إن قصدت منها أن تتقوى على طاعة الله تبارك وتعالى، وكذلك طعامك وشرابك ونومك لو قصدت به التقوي على طاعة الله، فهو عمل صالح تؤجر عليه، وهكذا سائر المباحات تنقلب طاعات بالنية الصالحة، فعملك وراحتك ونومك ويقظتك وطعامك وشرابك ولهوك وفرحك، كل ذلك إن كان منضبطاً بضوابط الشرع، وقصد به المسلم وجه الله تبارك وتعالى، فهو عبادة وقربة.

ثم قال ﷻ: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾[1]، أي: أن هذا الكتاب يحذر أولئك الذين جعلوا لله ولداً، فما وحدوه ولا عظموه سبحانه، ولا عرفوا قدره، ومن هؤلاء الذين قالوا اتخذوا الله ولداً: اليهود الذين قالوا عزير بن الله، والنصارى الذين قالوا المسيح بن الله، ومشركوا العرب حين قالوا الملائكة بنات الله.

﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ﴾[2] أي: ليس عندهم علم ولا دليل ولا حجة ولا برهان في زعمهم هذا، ولا عند آبائهم الذين توارثوا عنهم هذا الزعم

---

(١) الكهف: ٤ .

(٢) الكهف: ٥ .

بأن لله ولداً ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: عظمت وقبحت تلك الكلمة التي تخرج من أفواههم وذلك الزعم بأن الله له ولد ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[1]، فدعوى الولد لله تعالى كذبٌ محضٌ، وهي شرك بالله تعالى، فالله جل وعلا واحدٌ أحدٌ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

والشرك بالله ﷻ جريمةٌ كبرى، وظلمٌ عظيمٌ، بل هو أعظم الظلم، ولا يغفره الله تعالى أبداً، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[3] .

وعن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال: «**يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني فإني سأغفر لك على ما كان فيك، ولو لقيتني بقراب الأرض خطايا للقيتك بقرابها مغفرة، ولو عملت من الخطايا حتى تبلغ عنان السماء ما، لم تشرك بي شيئاً ثم استغفرتني، لغفرت لك، ثم لا أبالي**»[4].

---

(١) الكهف: ٥ .

(٢) لقمان: ١٣ .

(٣) النساء: ٤٨ .

(٤) رواه أحمد (٢١٥٠٥) وقال محققو المسند(٣٥/ ٣٩٩) : «حديث حسن»، ومعنى (بقراب الأرض) أي: بما يقارب ملأها.

وعن أبي بكرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وجلس، وكان متكئاً، فقال: «ألا وقول الزور»، قال: فما زال يكرِّرها حتى قلنا: ليته سكت[1].

وقول الله جل وعلا : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[2] يؤخذ منه: خطورة الكذب على الله تعالى، وقد قال ربنا جل وعلا: ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾[3].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[4].

وممن يكذب على الله: من يؤول القرآن على مزاجه وهواه، فيحلّ ما حرَّم الله، ويحرِّم ما أحلَّ الله، قال الله جل وعلا: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾[5].

---

(١) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧) .

(٢) الكهف: ٥ .

(٣) يونس: ٦٩ .

(٤) الزمر: ٦٠.

(٥) النحل: ١١٦ .

والكذب على النبي ﷺ ملحق بالكذب على الله، فهو من الكبائر والعظائم، فعن المغيرة ﷺ، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إنَّ كذباً عليَّ ليس ككذبٍ على أحد، من كذب علي متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار**»[1].

وهذا يوجب علينا الحذر عندما ننقل أحاديث منسوبةً للنبي ﷺ، ويوجب علينا التأكد من صحة نسبتها له ﷺ قبل نشرها أو طباعتها وتوزيعها أو ذكرها على المنابر أو في المجالس، والتأكد يكون بالرجوع إلى مصادر السنة الموثوقة، وسؤال أهل العلم الأثبات الثقات المشهود لهم بالعلم والفضل والتقوى .

وكم للأسف من أحاديث مكذوبة، لا نقول أحاديث ضعيفة[2]، بل مكذوبة على النبي ﷺ، ينشط لها بعض العامة فيرسلها بالرسائل بالجوالات، أو بالإيميلات، أو يطبعها في أوراق، أو كتيبات، وهو لا يعلم أن هذا حديث مكذوب على النبي ﷺ، فلينتبه المسلم لذلك، ولا ينشر حديثاً إلا بعد التأكد من صحة نسبته للنبي ﷺ .

---

(١) رواه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٤) .

(٢) فالذي عليه جمهور العلماء : أن الحديث الضعيف يُعمل به في فضائل الأعمال بشروط ثلاثة:

١ – أن يكون الضعف غير شديد ؛ فيخرج من انفرد من الكذابين والمتهمين بالكذب، ومن فحش غلطه، وقد نقل العلائي الاتفاق على ذلك.

٢ – أن يكون أصل العمل الذي ذُكر فيه الترغيب والترهيب ثابتاً بنصوص أخرى صحيحة .

٣– أن لا يعتقد عند العمل به ثبوته عن النبي ﷺ، بل يعتقد الاحتياط.

ثم قال ﷻ يهدئ من روع النبي ﷺ، ويخفف من معاناته وحزنه على عدم دخول البعض في دين الإسلام، يقول جل وعلا: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[1].

وهذا كقوله جل وعلا: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾[2]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾[3]، وقوله سبحانه: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾[4]، فالآيات تدور حول نفس المعنى، وهو حزن النبي ﷺ الشديد لعدم إيمان الكافرين والمعرضين.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ ﴾ ليس المقصود به التشكيك، وإنما اليقين، فالله ﷻ يعلم يقيناً أن نبيه ﷺ أتعب نفسه من كثرة تفكيره في إيمان هؤلاء، وحرصه على هدايتهم، فأراد الله ﷻ أن يهدئ من روعه وأن يسليه وأن يخفف عنه فقال: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ أي: بهذا

---

(١) الكهف: ٦.

(٢) الشعراء: ٣.

(٣) فاطر: ٨.

(٤) النمل: ٦٩ – ٧٠.

القرآن، ومعنى باخع أي: مهلك نفسك، أو قاتل نفسك، قال الإمام الطبري: «يعني تعالى ذكره بذلك: فلعلك يا محمد قاتل نفسك ومهلكها على آثار قومك الذين قالوا لك ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾[1]، تمرداً منهم على ربهم، إن هم لم يؤمنوا بهذا الكتاب الذي أنزلته عليك فيصدقوا بأنه من عند الله حزناً وتلهُّفاً ووجداً، بإدبارهم عنك، وإعراضهم عما أتيتهم به وتركهم الإيمان بك»[2].

وأما قوله: ﴿أَسَفًا﴾ فقيل: غضباً، أي: فلعلك باخع نفسك إن لم يؤمنوا بهذا الحديث غضباً، وقيل: جزعاً، وحزناً عليهم [3].

قال الإمام الطبري: (وهذه معاتبة من الله عز ذكره على وجده بمباعدة قومه إياه فيما دعاهم إليه من الإيمان بالله، والبراءة من الآلهة والأنداد، وكان بهم رحيماً)[4].

وهذا دليل على اهتمام النبي ﷺ بالدعوة إلى الله، وحرصه الشديد على هداية البشرية، فلم يأخذ الدعوة إلى الله على أنها وظيفة لها زمنها المحدد، فإذا انتهت ساعات العمل في تلك الوظيفة، انتهت الدعوة بنهايتها، كما يفعل بعض الأئمة والدعاة وللأسف الشديد .

---

(١) الإسراء: ٩٠.

(٢) «تفسير الطبري» (١٥/ ١٤٩) ط . هجر .

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ١٤٩، ١٥٠) .

(٤) «تفسير الطبري» (١٥/ ١٥٠) .

لقد كان النبي ﷺ يحمل همَّ الدعوة حتى أثقله وأجهده وكاد يهلك نفسه من شدة حرصه واستفراغ كامل وسعه لأجل هداية الناس ودلالتهم على ربهم جل وعلا، فجاءه التنبيه من الله ﷻ والإرشاد بأن لا يهلك نفسه، وألا يحزن على من هلك وأبى الدخول في الإسلام .

وهذا إرشاد للدعاة والأئمة والعلماء والآباء والأمهات والمرشدين والمصلحين، أن يهتموا بحالة المدعوين الذين يدعونهم إلى الله تبارك وتعالى، ويحرصوا على تبليغهم ودعوتهم ونصحهم وإرشادهم، فإن الإنسان إذا اهتم أدَّى الواجب، لكن ينبغي عليه ألا يبالغ في هذا الاهتمام إلى درجة يهلك فيها نفسه، وإنما يبلغ ويقنع ويحاور ويرد الشبهات، ويدع النتائج بعد ذلك على الله تعالى، فهو سبحانه الهادي والمتفضّل على من شاء من عباده.

قال جل وعلا: ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[1].

وقال سبحانه : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾[2].

---

(١) العنكبوت: ١٨ .

(٢) الشورى: ٤٨ .

وقال جل وعلا : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[١].

ثم قال ﷻ خاتماً هذه الآيات التي افتتح بها هذه السورة المباركة، وقبل أن يشرع في ذكر القصص: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٢].

يبين تبارك وتعالى في هذه الآية أن الدنيا فانية، وأنها مجرد زينة مؤقتة للأرض، وأنها لا قيمة لها أمام الآخرة، وأنها دار عمل وابتلاء ليظهر فيها المحسن والمسيء، وهنا يُنبَّه المؤمن في كل زمان ومكان على أن لا يجعل الدنيا همه وفكره وشغله الشاغل، بل الآخرة هي همه وشغله وفكره الذي يشغل جل وقته.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»[٣].

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ مرَّ بشاة ميتة قد ألقاها أهلها، فقال ﷺ : «**للدنيا أهون على الله، من هذا عليكم**»[٤]، فهذه الدنيا التي نتقاتل عليها، ونفكر فيها، وننشغل بها، هي أهون على الله من هذه الشاة الميتة .

---

(١) الغاشية: ٢١ – ٢٢ .

(٢) الكهف: ٧ .

(٣) رواه مسلم (٢٧٤٢) .

(٤) رواه مسلم (٢٩٥٧) عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ مرَّ بالسوق، داخلاً من بعض العالية، والناس كنفته – يعني إلى جانبه –، فمرَّ بجدي أسك – أي صغير الأذنين – ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «**أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟**» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «**أتحبون أنه لكم؟**»

وعن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء**»[1].

وقال ﷺ : «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه** – وأشار يحيى[2] بالسبابة – **في اليم، فلينظر بم ترجع؟**»[3]. لو وضعت أصبعك في البحر ثم تخرج بقطرات من ماء عليه، ماذا تعدل هذه القطرات في هذا البحر، ماذا تساوي إذا قارنتها بمياه البحر، لا شيء!!، فكذلك الدنيا بالقياس إلى الآخرة.

وقوله جل وعلا: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ** ﴾ يعني: ما جعله الله فيها من خيرات، من زرع، ونبات، ومعادن، وخيرات ﴿ **زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾[4].

قالوا: والله لو كان حياً، كان عيبا فيه، لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: «**فوالله للدنيا أهون على الله، من هذا عليكم**».

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٠) وقال: «هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير وزياداته» (٥٢٩٢)؛ يقول علي القاري في «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٥/ ١٧٣٣) : (فالحكمة في إطعامهم – يعني الكفار– وإسقائهم وإبقائهم وزيادة إنعامهم أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر).

(٢) أحد رواة الحديث .

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨)، ومعنى (**اليم**): البحر (**بم ترجع**) الضمير عائد على الإصبع والمراد أنه لا يعلق بها شيء كثير من الماء، بل ما يعلق بها لا يُذكر، ومعنى الحديث: ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر.

(٤) الكهف: ٧ .

قال الإمام الطبري – رحمه الله- : (يقول: لنختبر عبادنا أيهم أترك لها – أي للدنيا - وأتبع لأمرنا ونهينا وأعمل فيها بطاعتنا)[1].

فالله ﷻ جعل هذه الدار بما فيها من الزينة ليختبرنا تبارك وتعالى، هل نتعلق بهذه الزينة ونصبح عبيداً لها، أم أننا نتنافس في عمل الخير، وعمل الصالحات لنفوز بما عند الله ﷻ، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[2]، وكما قال جل وعلا: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾[3].

وأحسن عملاً: هو العمل الخالص لوجه الله تبارك وتعالى، والموافق لهدي رسوله ﷺ .

---

(١) «تفسير الطبري» (١٥/ ١٥١) .

(٢) هود: ٧، قال الإمام الطبري: «﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ يقول: ليختبركم ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ يقول: أيكم أحسن له طاعة» ثم روى بسنده عن عن عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ : أنه تلا هذه الآية: ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧] قال: «أيكم أحسن عملاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله».
«تفسير الطبري» (١٢/ ٣٣٤، ٣٣٥) .

(٣) الملك: ٢، وقال الإمام الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ١١٨) : « وقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ فأمات من شاء وما شاء، وأحيا من أراد وما أراد إلى أجل معلوم ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ يقول: ليختبركم فينظر أيكم له أيها الناس أطوع، وإلى طلب رضاه أسرع».

وقوله تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1] يدل على عظمة هذا الدين الذي لا يحثنا على مجرد فعل الخير، وفعل الحسن، بل يحثنا على فعل الأحسن، ويريد من الأمة كلها أن تتنافس في الأحسن والأفضل، فما أجمل ديننا .

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾[2] قال الإمام الطبري – رحمه الله– : (وإنا لمخربوها بعد عمارتناها بما جعلنا عليها من الزينة، فمصيروها صعيداً جرزاً لا نبات عليها ولا زرع ولا غرس، وقد قيل: إنه أريد بالصعيد في هذا الموضع: المستوي بوجه الأرض)[3].

وقال الإمام البغوي– رحمه الله–: (فالصعيد: وجه الأرض، وقيل: هو التراب ﴿جُرُزًا﴾ يابساً أملسَ لا ينبت شيئاً. يُقال: جرزت الأرض إذا أكل نباتها)[4].

أي أن هذه الحياة التي يتنافس فيها المتنافسون، ويتقاتل لأجلها المتقاتلون، ويتكالب عليها عبدة الدنيا، نهايتها الصعيد وهو التراب الموجود على وجه الأرض، والجُرُز: أي: أرض لا يوجد بها شيء مطلقاً، لا نبات ولا منفعة، أي: نهاية كل ما على هذه الدنيا تراب لا ينبت عليه شيء من الشجر والزرع والثمر، ولا يوجد عليه شيء مطلقاً، أرض جرداء، وهذا فيه درس وعبرة لكل إنسان

---

(١) الكهف: ٧ .

(٢) الكهف: ٨.

(٣) «تفسير الطبري» (١٥/ ١٥٣) .

(٤) «تفسير البغوي» (٥/ ١٤٤) .

تعلق قلبه بهذه الحياة أن يخفف من هذا التعلق، بل ينبغي أن يجعل تعلقه بالله تبارك وتعالى لا غير .

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه .



قصة أصحاب الكهف

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، نتابع الحديث في تفسير سورة الكهف، هذه السورة المباركة التي حثنا النبي ﷺ على قراءتها يوم الجمعة، وتوقفنا عند قصة أهل الكهف، واليوم نتعرض لها بإذن الله تعالى.

فبعد أن بدأت السورة بالحديث عن الإيمان والعقيدة، وتحدثت عن زخرف الحياة الدنيا الفاني جاءت هذه القصة العملية لهؤلاء الفتية الذين عزفوا عن هذه الدنيا وزهدوا فيها ورغبوا فيما عند الله ﷻ، فكانت القصة كالتطبيق العملي للكلام الذي قدمه الله ﷻ في هذه السورة، فقال في أول هذه القصة: قال جل وعلا: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾[1].

أظننت يا محمد أن قصة أصحاب الكهف هي أعجب القصص، فهناك أعجب منها، فخلق السماوات والأرض أعجب، والليل والنهار أعجب، والشمس والقمر والكواكب أعجب .

يقول الإمام الطبري – رحمه الله-: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: أم حسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً، فإن ما خلقت

---

(١) الكهف: ٩ .

من السماوات والأرض، وما فيهن من العجائب أعجب من أمر أصحاب الكهف، وحجتي بكل ذلك ثابتة على هؤلاء المشركين من قومك، وغيرهم من سائر عبادي)[1].

ثم روى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قوله في تفسير هذه الآية: (الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم)[2].

وقال الإمام ابن كثير– رحمه الله–: (أي: ليس أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء؛ أعجب من أخبار أصحاب الكهف والرقيم)[3].

و﴿الكهف﴾ هو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون، وأمَّا ﴿الرَّقيم﴾ فقد اختُلف فيه على أقوال، منها: أنه وادٍ قريبٍ من أيلة، وقيل: أن المراد به القرية، وورد عن ابن عباس أنه الجبل الذي فيه الكهف، والصحيح في تفسيره أنه لوحٌ من الحجارة كُتِبَ عليه قصص أصحاب الكهف، ثم وُضِعَ على

---

(١) «تفسير الطبري» (١٥/ ١٥٥).

(٢) «تفسير الطبري» (١٥/ ١٥٦).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٣٨).

باب الكهف، حتى إذا جاء مَنْ بَعْدهم فقرأ تلك القصة وعرف أسماءهم، أدرك آية الله تبارك وتعالى وقدرته ومعجزته[1].

ثم قال ﷻ: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[2]، أي: حين أوى الفتية أصحاب الكهف إلى كهف الجبل، هرباً بدينهم إلى الله، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ رغبة منهم إلى ربهم، في أن يرزقهم من عنده رحمة.

وقوله: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي: يسِّر لنا بما نبتغي وما نلتمس من رضاك والهرب من الكفر بك، ومن عبادة الأوثان التي يدعونا إليها قومنا ﴿رَشَدًا﴾ أي: سداداً إلى العمل بالذي تُحِبّ[3]، وهذا دعاء بأن تكون عواقب أمورهم إلى خير، وقد كان من دعائه ﷺ: «**وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشداً**»[4]، وكان من دعائه ﷺ: «**اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة**»[5].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٣٨).

(٢) الكهف: ١٠.

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ١٦١، ١٦٢).

(٤) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٣٩) وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٥٣٢).

(٥) رواه أحمد في «المسند» (١٧٦٢٨) (٢٩/ ١٧١)، والحاكم في «المستدرك» (٦٥٠٨) (٣/ ٦٨٣).

وقصة أصحاب الكهف كما ذكرها المفسِّرون: أن مَلِكاً كافراً كان يُجْبِر قومه على عبادة الأصنام، ويزخرف ويزين لهم هذه العبادة، فيجتمع الأقوام ليعبدوا تلك الأصنام من الحجارة ويسجدوا ويركعوا لها ويعظموها، حتى خرج نفرٌ من الشباب الذين ما قبلت عقولهم أن يسجدوا لحجارة، والذين رفضت فطرتهم الصافية الطاهرة أن يسجدوا لتلك الحجارة، وفي كتب أهل الكتاب أنها في بلاد تركيا الآن بالقرب من أزمير، وكانت تابعة لليونان، وأن ذلك الملك يقال له (دقيانوس) وأحد علماء المسلمين ألَّف كتاباً رجح فيه أن مكان الكهف هو في جبل بالقرب من عمّان في الأردن، وبين أوصافه كما جاء في القرآن العظيم، وعلى كل حالٍ لا يهمنا مكان الكهف؛ لأنَّ الهدف والعبرة حاصلة سواء عرفنا مكان الكهف تحديداً أم لم نعرفه، ولو كان لتحديد المكان أهمية لحدده الله تبارك وتعالى في القرآن العظيم، فالمقصود أن هذا الملك الكافر الطاغية كان يُجْبِر قومه على عبادة الأصنام، فخرج نفر سبعة من شباب الأغنياء والملوك فيهم خرجوا وجلسوا بجوار بعضهم بعضا وأخذوا يتحدثون عن هذه الأصنام ويتحدثون عن الخالق سبحانه وتعالى، فتعاهدوا على الإيمان، وتعاهدوا على ترك عبادة الأصنام، فعَلِمَ بهم المِلك فاستدعاهم، وأمهلهم يوماً ليعبدوا هذه الأصنام ويتقربوا لها، فإن لم يعودوا قتلهم، فرَبَطَ الله على قلوبهم، وثبَّتْ الإيمانَ في نفوسهم، وشاء الله ﷻ لهم في هذا اليوم أن يفروا من هذا الطاغية، وأن يذهبوا إلى ذلك الكهف وذلك الغار، وأراد

الله تبارك وتعالى لهم أن يناموا ثلاثمائة وتسعة سنوات، ليدل سبحانه على قدرته على البعث والنشور يوم القيامة، فيكون ذلك عبرة ودرساً لمن شاهدوا هذه الآية .

ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[1]، أهمية اللجوء إلى الله تعالى، فأول ما بدأ به أولئك الفتية عندما ذهبوا إلى الكهف هو اللجوء إلى الله جل وعلا، وهكذا ينبغي للمسلم إن كان في ضيق أو شدة أن يلجأ إلى الله تبارك وتعالى.

قال جل وعلا : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[2].

قال الإمام البغوي : (﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: أنمناهم وألقينا عليهم النوم. وقيل: معناه منعنا نفوذ الأصوات إلى مسامعهم، فإن النائم إذا سمع الصوت ينتبه ﴿فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي: أنمناهم سنين معدودة، وذكر العدد على سبيل التأكيد، وقيل: ذكره يدل على الكثرة، فإن القليل لا يُعَدُّ في العادة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ يعني من نومهم ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي: علم المشاهدة ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أيُّ

---

(١) الكهف: ١٠ .

(٢) الكهف: ١١ – ١٣ .

الطائفتين ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ وذلك أن أهل القرية تنازعوا في مدة لبثهم في الكهف)[1].

ومعنى: ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ﴾ أي: أحفظ لما مكثوا في كهفهم نياماً، و ﴿أَمَدًا﴾ أي: غايةً، أو عدداً، ونصبه على التفسير[2].

وقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾، فيه إعجازٌ بينه علماء الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، حيث ذكروا أن في الأذن موقعا إذا ضُرِبَ عليه الإنسان فإنه ينام، وهناك بحوث علمية مدونة في هذا الصدد، وموجودة في هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾، كما ذكر الله ﷻ أنهم مكثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة، وتسع سنين (٣٠٩) وهم نيام، وليسوا أمواتاً.

وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[3] قال الحافظ ابن كثير– رحمه الله–: (من هاهنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية – وهم الشباب – وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وغشوا في دين الباطل؛ ولهذا كان

---

(١) «تفسير البغوي» (٥/ ١٥٥).

(٢) انظر: «تفسير البغوي» (٥/ ١٥٥).

(٣) الكهف: ١٣.

أكثر المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شباباً، وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً[1].

وهكذا كان غالب أتباع الرسل شباباً، قال جل وعلا: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾[2]، يعني: فتيةٌ وشبابٌ، فأكثر المستجيبين للأنبياء هم الشباب الذين صفت فطرتهم، فينبغي للمربِّين أن يعتنوا بالشباب، وأن يهتموا بهم، فالأمل فيهم، والصلاح فيهم، والهداية فيهم، والخير فيهم، والمستقبل فيهم بإذن الله تعالى.

وقوله ﷻ: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[3] استدل به الأئمة - كالبخاري وغيره- على زيادة الإيمان، فالإيمان عند أهل السنة والجماعة يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

وهذا كما قال جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[5]، وقال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[1]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٤٠).

(٢) يونس: ٨٣.

(٣) الكهف: ١٣.

(٤) محمد: ١٧.

(٥) التوبة: ١٢٤.

وقوله جل وعلا : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾[٢].

قال الإمام ابن كثير– رحمه الله–: (يقول تعالى: وصبَّرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم)[٣].

ومع كون الفتية من أبناء الأغنياء والملوك، إلا أنهم لم يشعروا بأيِّ سعادة أو طمأنينة، فذلك لا يحققه لهم إلا الإيمان ولهذا دخلوا في الإيمان، وهذا ما يفعله بين حين وآخر أشخاص من أثرياء الغرب الكافرين، من ممثلين ومغنين وعارضي أزياء وتجار وغيرهم، عندما يُقبلون على الإسلام والإيمان رغبة في السعادة والرضا والطمأنينة التي لم يحصلوا عليها فيما كانوا فيه.

فهؤلاء الفتية خرجوا من كل الدنيا، وخرجوا من الثراء والملك إلى الإيمان، وربط الله جل وعلا على قلوبهم وثبتهم على إيمانهم، فقالوا : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ﴾ ولن: لنفي التأبيد، أي: لا يقع منَّا هذا أبداً؛

---

(١) الفتح : ٤.

(٢) الكهف: ١٤.

(٣) « تفسير ابن كثير» (٥/ ١٤١).

لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلا؛ ولهذا قالوا : ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي: باطلاً وكذباً وبهتاناً[1].

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾[2] أي: هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً؟!.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[3] يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك، فيُقال: إنَّ مَلِكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله، أبى عليهم، وتهدَّدهم وتوعَّدهم، وأمر بنزع لباسهم – الذي كان عليهم من زينة قومهم – عنهم، وأجّلهم لينظر في أمرهم، لعلهم يراجعون دينهم الذي كانوا عليه، وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه، والفرار بدينهم من الفتنة.

وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس، أن يفر العبد بدينه خوفاً من الفتنة، كما جاء في الحديث: «**يُوشِك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن**»[4] ، ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع.

---

(١) « تفسير ابن كثير» (٥/ ١٤١) .

(٢) الكهف: ١٥.

(٣) الكهف: ١٥.

(٤) رواه البخاري في صحيحه برقم (١٩) من حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه.

فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك، وأخبر عنهم في قوله: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[1]، أي: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم﴾ الذي أنتم فيه ﴿مِّرْفَقًا﴾[2] أي: أمراً ترتفقون به، فعند ذلك خرجوا هاربين إلى الكهف، فأووا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم، وتطلبهم الملك فيقال: إنه لم يظفر بهم، وعمَّى الله عليه خبرهم، كما فعل بنبيه محمد ﷺ - وصاحبه الصدِّيق - حين لجأ إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطلب، فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه[3].

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[4].

قال المفسرون: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: تميل عن كهفهم ذات

---

(١) الكهف: ١٦.

(٢) الكهف: ١٦.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٤٢).

(٤) الكهف: ١٧.

اليمين، ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾[1] وتقرضهم ذات الشمال إذ تذهب عنهم وتنفك عنهم ذات الشمال.

قال الإمام ابن كثير– رحمه الله–: (هذا دليل على أن باب هذا الكهف من نحو الشمال؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي: يتقلص الفيء يمنة كما قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة: ﴿تَّزَٰوَرُ ﴾ أي: تميل؛ وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان؛ ولهذا قال:﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق)[2].

وتأمل ذلك الموقع الذي جعله الله لهم بالكهف، فلم يجعلهم الله ﷻ على جهة المشرق أو المغرب فتكون الشمس حارقة لهم ومؤذية لهم

﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي: في سعة وفي تهوية، حتى يدخل الهواء إليهم فلا تتعفن أجسادهم من طول الجلوس ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾[3] فإن الإنسان إذا مكث على جنب واحد كما يقول الأطباء والعلماء فإن الأملاح تتكاثر ويتعفن

---

(١) الكهف: ١٧.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٤٢).

(٣) الكهف: ١٧.

ذلك الجزء من الإنسان ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الذي هداهم هو الله ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[1].

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾[2].

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي: إنهم نائمون، ولكن الله ﷻ لم يُطْبِق أعينهم، وإنما أعينهم مفتوحة، وهذا أيضاً من آياته تبارك وتعالى، وإلا لتلفت أعينهم لو كانت أُغمِضتْ طوال تلك المدَّة، ولكن الله ﷻ جعلها مفتوحة.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ يقلبهم سبحانه مرة على الجهة اليمنى، ومرة على الجهة اليسرى، وهذا من آياته سبحانه وتعالى، حتى لا تتلف أجسادهم، ولا تتعفَّن جلودهم ولحومهم.

﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ أي: بالفِناء، أو بالباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتاً في داخله كلب، فكان خارج الغار، وذكر الله سبحانه وتعالى كلبهم معهم - مع أنه كلب - ؛ لأنه رافق هذه الصحبة المؤمنة، فرفع الله شأنه وذكره تبارك وتعالى في القرآن العظيم.

---

(١) الكهف: ١٧.

(٢) الكهف: ١٨.

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾[1] وهذا من آيات الله تبارك وتعالى وحكمته في أن لا يقربهم أحد حتى تكتمل ثلاثمائة وتسع سنوات، ليكونوا عبرة وآية للأقوام الذين رأوهم بعد ذلك؛ فمن يدخل إليهم ويرى شعورهم الطويلة، وأظافرهم الطويلة، وعيونهم المفتوحة، يفزع ويخاف من منظرهم، وهذا من حكمة الله تبارك وتعالى لئلا يقربهم أحد، حتى تكتمل عدتهم ومدتهم.

ثم يقول الله تبارك وتعالى بعد ذلك: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾[2].

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾[3]، أي: بعد مرور ثلاثمائة سنة، وتسع سنين وهم نائمون، بعثهم الله تبارك وتعالى، وحرَّكهم وأيقظهم، ليكون بينهم تساءل في مدة لبثهم، فيفيد تساؤلهم اعتبار المعتبرين بحالهم، فهذا التساؤل، وهذه الفترة الطويلة التي رأوها قصيرة، فيها عبرة وفيها عظة، وفيها تدليلٌ على قدرة الله ﷻ في إحياء الأموات، والبعث بعد الموت.

---

(١) الكهف: ١٨.

(٢) الكهف: ١٩ – ٢٠.

(٣) الكهف: ١٩.

قال الإمام ابن كثير– رحمه الله– :(يقول تعالى: وكما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئاً، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أي: كم رقدتم؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ فقد كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار، واستيقاظهم كان في آخر نهار؛ ولهذا استدركوا فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ أي: فِضَّتكم هذه، وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدَّقوا منها وبقي منها؛ فلهذا قالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أي: مدينتكم التي خرجتم منها، والألف واللام للعهد، ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ أي: أطيب طعاماً، وقوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: في خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، يقولون: وليتخفَّ كل ما يقدر عليه ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ أي: ولا يُعلِمَنَّ ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾[1].

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي: إن علموا بمكانكم ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا

---

(١) الكهف: ١٩ .

يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن واتوهم على العود في الدين فلا فلاح لهم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال : ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾[1][2].

ولنتأمل قول أصحاب الكهف : ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾[3] أي: أحلَّ طعاماً، أي: رغم ما هم فيه من هذه الفاجعة، ورغم ما هم فيه من هذا الجوع والتعب، ثلاثمائة وتسع سنوات وهم نيام، ومع ذلك يسألون ويبحثون عن الرزق الحلال، ما غاب عنهم الحلال وهم في هذه الحالة؛ لأن مدينتهم التي كانوا فيها مدينة كفر وشرك، فكانوا يذبحون للأصنام، وكانوا يأكلون الحرام، فكان هؤلاء الفتية يتحرَّون الحلال .

وقد حذرنا النبي ﷺ من أكل الحرام، فقال ﷺ : «**لا يدخل الجنة من نبت لحمه من سحت، النار أولى به**»[4].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: تُليت الآية عند رسول الله ﷺ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[5]، فقام سعد بن أبي وقاص فقال:

---

(١) الكهف: ٢٠ .

(٢) انظر : «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٤٥-١٤٦) .

(٣) الكهف: ١٩ .

(٤) رواه أحمد (١٥٢٨٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وقال محققو المسند (٢٣/ ٤٢٥) : إسناده قوي على شرط مسلم.

(٥) البقرة: ١٦٨ .

يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال له النبي ﷺ: «**يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده، إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوماً، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به**»[1].

وتأمل قول أصحاب الكهف لمن سيذهب لإحضار الطعام الطيب لهم: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾[2] أي: أن يذهب في خفة وخفيةٍ، لا يُظهر نفسه أمام الناس، ولا يستفزّهم، ولا يصطدم معهم ؛ لأنهم فئة صغيرة أمام بلدة بأكملها، وهذا من حكمة وفطنة الفتية أصحاب الكهف، فالمسلم العاقل لا يواجه أعداءه إن كانت إمكاناتهم وقدراتهم تفوق إمكاناته وقدراته بأضعاف مضاعفة في عدد أو عُدَّة، حتى يتهيأ لتلك المواجهة ويقوم بإعداد العُدة .

وخرج هذا الرجل منهم، ومعه الدراهم من الوَرِق، وذهب إلى المدينة في حذر ليشتري طعاماً طيباً حلالاً يأكل منه هو وأصحابه في الكهف، ولما ذهب جهة المدينة تفاجأ، فلا الطرق هي الطرق، ولا البنيان هو البنيان، ولا الناس هم الناس، يسير وهو مشدوه بكل ما يرى، فلما ذهب إلى محل لبيع الطعام، وأعطاه تلك النقود، تعجب البائع من منظره، وتعجب من نقوده، فقال له: من أنت؟

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٤٩٥)، وقال: «لا يروى هذا الحديث عن ابن جريج إلا بهذا الإسناد»، وضعفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» (١٨١٢) .

(٢) الكهف: ١٩ .

قال: ألسنا في بلد كذا؟ ألسنا في أيام الملك دقيانوس؟ قال: لا. فلما رأى دراهمه تجمَّع عليه الناس ورفعوه إلى مَلِكهم، وكان ملكاً صالحاً .

وهكذا تتبدل الأيام وتتغير الأحوال، فمهما طغى الطاغي، فالموت آخذه لا محالة، ومهما تجبر المتجبر فالتاريخ مزبلة له يرمى فيها، ويلعنه الناس مدى الدهر .

لا تظلمنَّ إذا ماكنت مقتدراً فالظلمُ ترجِعُ عُقباه إلى النَّدم

تنام عيناك والمظلومٌ مُنتبهٌ يدعو عليك وعين الله لم تنم

تبدَّل الحال من عهد طغيان إلى عهد ملك صالح يخاف الله تبارك وتعالى، فلما جاءه هذا الرجل سأله عن حاله، فأخبره بخبره وخبر سائر الفتية مه في الكهف، فذهب معه إلى الكهف، فلما اقترب من الكهف رآهم داخل الكهف يصلون، فلما دخل صاحبهم لهم إلى الكهف، أذن الله تبارك وتعالى بقبض أرواحهم، فماتوا أمام المِلك وحاشيته ومن معهم، وهذا قوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ﴾ أي: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان عبرةً لهم وعظةً ؛ لأن هؤلاء القوم – كما ذكر غير واحد من السلف –

(١) الكهف: ٢١ .

كانوا مختلفين في أمر البعث، هل يكون يوم القيامة بالجسد والروح، أم يكون بالروح فقط، فأراهم الله تبارك وتعالى هؤلاء الناس، الذين أبقاهم الله أحياء ثلاثمائة وتسع سنوات، آية وعبرة وعظة ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ أي: لا شك فيها أبداً، فالساعة حق، والموت حق، والجنة حق، والنار حق ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ قال ابن عباس: يتنازعون في البنيان فقال المسلمون: نبني عليهم مسجدا يصلي فيه الناس لأنهم على ديننا وقال المشركون: نبني عليهم بنياناً لأنهم من أهل نسبنا. وقال عكرمة: تنازعوا في البعث، فقال المسلمون: البعث للأجساد والأرواح معاً، وقال قوم: للأرواح دون الأجساد فبعثهم الله تعالى وأراهم أن البعث للأجساد والأرواح[1].

﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾[2] أي: سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ هم أصحاب الكلمة والنفوذ. ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[3]؛ فمن فعل ذلك هم أهل السطوة والمنعة والنفوذ، فلم يكن ليمنعهم أحد، فهم المتغلبون وبيدهم الأمر، وبناء المساجد على القبور أمرٌ

---

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٥/ ١٦٠، ١٦١).

(٢) الكهف: ١٩.

(٣) الكهف: ١٩.

منعته الشريعة، وحذر منه النبي ﷺ، فقال ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد» يحذِّر ما فعلوا[1].

وقيل: إنهم بنوا مسجداً بجوار الكهف وليس على الكهف فالله تبارك وتعالى أعلم.

قال ﷻ: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾[2].

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله–: (يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضعف القولين الأولين بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ﴾ أي: قولا بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ﴾ فدل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر. وقوله: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (١٣٣٠) من حديث عائشة، رضي الله عنها.

(٢) الكهف: ٢٢ .

وقوله: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: من الناس. قال قتادة: قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله، عز وجل، كانوا سبعة. وكذا روى ابن جريج، عن عطاء الخراساني عنه أنه كان يقول: أنا ممن استثنى الله، ويقول: عدتهم سبعة[1].

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ قال الإمام الطبري– رحمه الله– : (يقول عز ذكره لنبيه محمد ﷺ : فلا تمار يا محمد، يقول: لا تجادل أهل الكتاب فيهم، يعني في عدة أهل الكهف، وحذفت العدة اكتفاء بذكرهم فيها لمعرفة السامعين بالمراد)[2].

فلا تبحث عن مثل هذه التفاصيل التي لا فائدة من ورائها، فعدد أصحاب الكهف، أو أسماؤهم، أو اسم كلبهم أو لونه، ونحو ذلك من تفاصيل سكت عنها القرآن، ولو أن لذكرها كبير فائدة لذكرها القرآن.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾أي: سهلاً هيناً؛ فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾[3] أي: فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب، أي من غير استناد إلى

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٤٧، ١٤٨).

(٢) «تفسير الطبري» (١٥/ ٢٢٠).

(٣) الكهف: ٢٢.

كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال[1].

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾[2].

هذا إرشاد من الله لرسوله ﷺ، فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل، علام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وقد جاء في سبب نزول هذه الآية عندما سئل النبيُّ عن قصة أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، وقوله ﷺ لمن سألوه: (سأجيبكم) ولم يقل: إن شاء الله، فتأخَّر الوحي خمسة عشر يوماً.

فجاء هذا التوجيه الرباني: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

وقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قيل: معناه إذا نسيت الاستثناء، فاستثن عند ذكرك له. قاله أبو العالية، والحسن البصري، وهو مروي عن ابن عباس، وقال: هي خاصة برسول الله ﷺ، وليس لأحدٍ منا أن يستثني إلا في صلة من يمينه[3].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٤٨).

(٢) الكهف: ٢٣، ٢٤.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٤٩، ١٥٠).

قال الإمام ابن كثير– رحمه الله–: (ويحتمل في الآية وجه آخر، وهو أن يكون الله عز وجل، قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى؛ لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾[1]، وذكر الله تعالى يطرد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكر الله سبب للذكر؛ ولهذا قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾[2] أي: إذا سُئلتَ عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك)[3].

وقوله ﷻ: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾[4].

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن

---

(١) الكهف: ٦٣.

(٢) الكهف: ٢٤.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٥٠).

(٤) الكهف: ٢٥ – ٢٦.

تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين؛ فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ أي: إذا سُئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك، وتوقيف من الله عز وجل، فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: لا يعلم ذلك إلا هو أو من أطلعه الله عليه من خلقه(١).

وقوله: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ أي: إنه لبصير بهم سميع لهم، وذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء ؛ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع، يرى أعمالهم، ويسمع ذلك منهم سميعاً بصيراً.

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾(٢) أي: أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر، الذي لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدَّس(٣).

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٥٠).

(٢) الكهف: ٢٦.

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٢٣٣، ٢٣٤)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ١٥١).

وفي ختام هذه القصة المباركة، قصة أصحاب الكهف، يقول الله ﷻ: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[1].

وتأتي هذه الآيات متوافقة مع هذه القصة، ليأخذ منها رسول الله ﷺ وأمته من بعده الدروس والعبر.

يوصي الله عز وجل في هاتين الآيتين نبيه محمداً ﷺ بتلاوة القرآن والصبر على الجلوس مع المؤمنين الذين شبههم بأهل الكهف الفئة الضعيفة الفقيرة المؤمنة المقربة من الله تبارك وتعالى.

وأول ما بدأ الله به في هذه الآيات: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ ﴾[2] وصية الله لنبيه محمد ﷺ وللمؤمنين في كل زمان ومكان بتلاوة القرآن، والتلاوة هنا بمعنى: القراءة والعمل والاتباع والدعوة إلى كتاب الله تبارك وتعالى، هذا كله داخل في معنى التلاوة، فليس المطلوب مجرد قراءة من غير عمل بالقرآن، وما فائدة القراءة إن لم يتبعها عمل ودعوة لتعاليم القرآن وتوجيهاته، كما قال النبي

---

(١) الكهف: ٢٧ – ٢٨ .

(٢) الكهف: ٢٧.

ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[1].

فهذه الآية تأمر وتوصي بتلاوة كتاب الله تعالى، وإننا لنتساءل: هل نحن نتلوا القرآن ونعمل به؟!، هل نحن في كل أوقاتنا نقرأ القرآن ؟ أم أننا لا نتلوه إلا في بعض الأوقات، كيوم الجمعة أو في رمضان، وما عدا هذا فنهجره وننساه!!؛ علينا أن نراجع أنفسنا ونراجع مواقفنا مع كلام الله جل وعلا .

﴿ **وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ** ﴾[2] يذكِّر الله نبيه محمداً ﷺ بأن هذا الكتاب وحيٌ من عند الله تعالى، فهذا القرآن الذي تقرأه إنما هو كتاب ربك، وحي من عند ربك وخالقك؛ وذلك لإثارة الاهتمام والرغبة في تلاوة القرآن والإقبال عليه.

﴿ **لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا** ﴾[3] لا مبدل لكلماته: أي لا مغير لكلمات الله ﷻ، فمنذ أن نزل القرآن قبل ألف وأربعمائة وثلاثين عاماً هجرياً[4] وهو يتلى اليوم كما كان يُتلى زمن النبي ﷺ، لم تتغير منه آية، ولم يتبدل منه

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦١) .

(٢) الكهف: ٢٧ .

(٣) الكهف: ٢٧ .

(٤) وقت إلقاء الدكتور عبد الله بصفر هذه الخطبة بمسجد الشعيبي بجدة، قبل ست سنوات في عام ١٤٣٠هـ.

حرف، وهذا تحدٍّ وإعجاز لكلام الله تعالى، فما استطاع السابقون أن يحرفوا كلام الله تعالى، ولن يستطيع الحاضرون ولا القادمون أن يغيروا شيئاً في كتاب الله ﷻ، فهو محفوظ بحفظ الله له سبحانه، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]، وهنا يقول تبارك وتعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[2].

يقول الإمام الطبري – رحمه الله- : (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : واتبع يا محمد ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا، ولا تتركنّ تلاوته، واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه، والعمل بحلاله وحرامه، فتكون من الهالكين، وذلك أن مصير من خالفه، وترك اتباعه يوم القيامة إلى جهنم ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ يقول: لا مغير لما أوعد بكلماته التي أنزلها عليك أهل معاصيه، والعاملين بخلاف هذا الكتاب الذي أوحيناه إليك)[3].

ومعنى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي: ولن تجد من دونه ملجأ ولا نصيراً تلوذ به، فاعتمد عليه في تبليغ رسالة ربك، واطلب معونته ونصره إياك.

فيا عبد الله، اقبل على كلام الله تعالى بالتلاوة والحفظ وتعلم معانيه والعمل به، والجأ إلى ربك وخالقك سبحانه واعتصم به في كل شؤونك، فملجأك أيها

---

(١) الحجر: ٩ .

(٢) الكهف: ٢٧ .

(٣) «تفسير الطبري» ، بتحقيق العلامة أحمد شاكر (١٧/ ٦٥١) .

المسلم إنما هو الله جل وعلا، هذه الحياة الدنيا لا تخلوا من هم ونكد وتعب لأنها دار ابتلاء، فلا تخلوا من التعب ولا من النكد ولا من المشقة فملجأك فيها إلى الله جل وعلا مدبِّر الأمر سبحانه.

قال الإمام ابن جرير – رحمه الله – في معنى قول الله تعالى ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾[1]: (يقول: وإن أنت يا محمد لم تتل ما أوحي إليك من كتاب ربك فتتبعه وتأتمّ به، فنالك وعيد الله الذي أوعد فيه المخالفين حدوده، لن تجد من دون الله موئلاً تئِلُ إليه، ومعدِلاً تعدل عنه إليه، لأن قدرة الله محيطة بك وبجميع خلقه، لا يقدر أحد منهم على الهرب من أمر أراد به)[2].

ثم قال جل وعلا: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[3] فبعد أن ذكر قصة أصحاب الكهف الذين جعل قصتهم عبرة وآية، أوصى نبيه محمداً ﷺ بتلك الوصية: أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه.

قال الحافظ ابن كثير– رحمه الله – : (أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه، ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشياً من عباد الله،

---

(١) الكهف: ٢٧ .

(٢) «تفسير الطبري» ، بتحقيق العلامة أحمد شاكر (١٧/ ٦٥١) .

(٣) الكهف: ٢٨ .

سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء. يُقال: إنها نزلت في أشراف قريش، حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال، وعمار، وصهيب، وخباب، وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة. فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ الآية [1]، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[2]) [3].

وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: (كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا!. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال ورجلان نسيت اسميهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدَّث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾) [4].

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[5] أي: لا تصرف بصرك عنهم يميناً ولا يساراً، لا

---

(١) الأنعام:٥٢ .

(٢) الكهف : ٢٨.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٥٢) .

(٤) رواه مسلم (٢٤١٣).

(٥) الكهف : ٢٨.

تلتفت إلى غيرهم، قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم، يعني: تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة[1].

فعليك بمجالس الصالحين، وعليك بمجالسة الأبرار، وابتعد عن مجالس الغفلة ومجالس المعصية، حتى ولو كان أصحابها أصحاب غنى وثروات ومناصب ووجاهات!!، فالعظمة لله، والبقاء لله، والقوة لله، والعزة لله، وكل ما عدا الله تبارك وتعالى زائل .

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

فالآية تدعو النبي ﷺ للثبات على مجالس الإيمان، ومجالس الخير، ومجالس الدِّين والتقوى، سواء كانت للفقراء أو الأغنياء، فقد يكون في مجالس بعض الفقراء غفلة ومعصية فلا يجوز مجالستهم في تلك الحالة، وقد يكون في مجالس الأغنياء خير وذكر وطاعة لله ﷻ فمجالستهم في هذه الحالة لا شيء فيها، بل قد تكون مستحبة ومرغَّبٌ فيها، فالمقصود هو مجالس الخير.

اصبر نفسك أيها المؤمن واحرص على الثبات في مجالس الإيمان، المجالس التي يباهي بها الله تبارك وتعالى بها ملائكة السماء، المجالس التي يُذْكَر فيها الله ﷻ، فلا يوجد بها غيبة، ولا نميمة، ولا سباب، ولا إهانة، ولا شرب للدخان، ولا لعب بالورق، ولا نظر في قنوات فاسدة، فهذه المجالس التي لا يذكر فيها الله ﷻ مجالس شر ومجالس شياطين ينبغي للمسلم أن لا يجلس فيها، وأن يبتعد كل

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٥٤) .

البعد عنها، وأن يصبر نفسه على مجالس الإيمان والتقوى ومجالسة الصالحين الأبرار.

روى الطبراني عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال: نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[1] فخرج يلتمسهم، فوجد قوماً يذكرون الله تعالى، منهم ثائر الرأس، وجافي الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم، وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني الله أن أصبر نفسي معهم»[2].

ثم قال جل وعلا: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[3]. قال الإمام ابن كثير– رحمه الله –: (﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعاً له ولا محباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[4])[5].

---

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٥٣).

(٣) الكهف: ٢٨.

(٤) طه: ١٣١.

(٥) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٥٤).

ثم قال ﷻ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[1].

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ تهديد ووعيد،

قال الإمام الطبري – رحمه الله – : (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : وقل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا، واتبعوا أهواءهم، الحقّ أيها الناس من عند ربكم، وإليه التوفيق والخذلان، وبيده الهدى والضلال، يهدي من يشاء منكم للرشاد فيؤمن، ويضلّ من يشاء عن الهدى فيكفر، ليس إليَّ من ذلك شيء، ولست بطارد لهواكم من كان للحقّ متبعاً، وبالله وبما أنزل عليَّ مؤمناً، فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا، فإنكم إن كفرتم فقد أعدَّ لكم ربكم على كفركم به ناراً أحاط بكم سرادقها، وإن آمنتم به وعملتم بطاعته، فإن لكم ما وصف الله لأهل طاعته) [2].

---

(١) الكهف: ٢٩ – ٣١ .

(٢) «تفسير الطبري» ، بتحقيق العلامة أحمد شاكر (١٨/ ٩، ١٠)

وقال الإمام ابن كثير – رحمه الله- : (يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : وقل يا محمد للناس: هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أي: أرصدنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: سورها)[1].

أي: أحاط بهم سورها، فالنار مُسَوَّرة لا يستطيع أحدٌ أن يفرَّ منها، ولا أن يخرج أو يقفز أو يهرب منها، قال ابن عباس – رضي الله عنهما- : ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ قال: حائط من نار[2].

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[3]، إذا طلب أهل النار الغوث والنجدة والعون يغاثوا بما يزيدهم عطشاً وعذاباً .

قال الإمام ابن كثير– رحمه الله-: (قال ابن عباس: «المهل»: ماء غليظ مِثلُ دُرْدِيِّ الزيت. وقال مجاهد: هو كالدم والقيح. وقال عكرمة: هو الشيء الذي

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٥٤) .

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٥٤) .

(٣) الكهف: ٢٩ .

انتهى حره. وقال آخرون: هو كل شيء أذيب. وقال قتادة: أذاب ابن مسعود شيئاً من الذهب في أخدود، فلما انماع وأزْبد قال: هذا أشبه شيء بالمهل.

وقال الضحاك: ماء جهنم أسود، وهي سوداء وأهلها سُوْدٌ.

وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المُهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار؛ ولهذا قال: ﴿يَشْوِي ٱلْوُجُوهَۚ﴾ أي: من حَرِّه، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه، شواه حتى يسقط جلد وجهه فيه)[1].

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[2] يعني: وساءت النار منزلاً ونهايةً ومقيلاً ومُجْتَمَعاً وموضعاً للارتفاق.

ثم بعد أن ذكر الله حال أهل الظلم والكفر، بين حال أهل الإيمان، لتكتمل الصورة فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾[3].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٥٤، ١٥٥).

(٢) الكهف: ٢٩.

(٣) الكهف: ٣٠، ٣١.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ لا يكفي إيمانٌ من غير عمل صالح، بل لا بُدَّ من العمل الصالح مع الإيمان، والعمل الصالح هو العمل الذي يكون خالصاً لله ﷻ موافقا لهدي النبي ﷺ، ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ كل من عمل عملاً صالحاً من صيام، أو صلاة، أو صدقة، أو زكاة، أو حَجٍّ، أو عُمْرَةٍ، أو غيرها من أعمال البر، فالله ﷻ هو الذي يتكفل بحفظه، أبشر أيها المؤمن وافرح بما أكرمك الله تبارك وتعالى به، فلن يضيع تعبك، ولن يضيع جهدك، فانشط فيما بقي من عمرك، فكل ما عملته من عمل صالح خالص لله ﷻ، ستجده في موازين حسناتك، محفوظ عند الله ﷻ، فضاعف عملك، وزد وأكثر، واستمر على هذا الخير حتى تلقى الله ﷻ.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ أي: إقامة دائمة أبداً ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾[1] وهذا من بهجة الجنة وجمالها وروعتها، فالمؤمنون في الجنة تجري الأنهار من تحت غرفهم ومنازلهم ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ يحلون، أي: يلبسون فيها الحلي من أساور الذهب، فإذا كان ملوك الدنيا يلبسون التيجان، ويلبسون الأساور من الذهب، فإن أهل الجنة كلهم يلبسون تيجان العز والكرامة من الله ﷻ، وإذا كانت أساور الذهب مُحَرَّمة على الرجال المؤمنين في الدنيا، فإن الله قد أحلها لهم يوم القيامة، ومن لبس الذهب من الرجال في الدنيا حرَّمه الله ﷻ عليه يوم القيامة.

---

(١) الكهف: ٣١.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾[1]، وقال في المكان الآخر: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[2]، وفصلَّه هاهنا فقال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾[3] واللون الأخضر مريح للنفس كما أثبت ذلك علماء الطب اليوم، فهم يلبسون الحرير من اللون الأخضر، وهو نوعان: سندس، وإستبرق؛ فالسندس: لباس رقاق كالقمصان وما جرى مجراها، وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق.

وقوله: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾[4]، الاتكاء: قيل: الاضطجاع، وقيل: التربع في الجلوس، والأرائك: جمع أريكة، وهي السرير المزيَّن، له قبة وله أستار وله زينة تغطيه، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها سرر ذهبية مرصعة بالدر والياقوت.

وقوله: ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ قابل بينه وبين قوله في النار: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[5]، وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله سبحانه

---

(١) الكهف: ٣١.

(٢) الحج: ٢٣.

(٣) الكهف: ٣١.

(٤) الكهف: ٣١.

(٥) الكهف:٢٩.

وهو يتحدث عن جهنم: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[1]، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[2].

والمعنى: إنهم يتمتعون هذا المتاع في الجنة، في حال كونهم متكئين فيها على السُّرُرِ المزينة؛ نِعْمَ الثواب ذلك الذي وعدوا به، من الجنة ونعيمها المقيم، وحسنت الجنة دار إقامة، بما اشتملت عليه من فنون الجمال، وألوان النعيم.

نسأل تبارك وتعالى أن يحسن ختامنا، وأن يرزقنا الفردوس الأعلى من الجنة برحمته وفضله وجوده وإحسانه، وأن يكرمنا بالعفو والعافية والسلامة في الدنيا والآخرة.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.



(١) الفرقان: ٦٦ .

(٢) الفرقان: ٧٥–٧٦ .

قصة صاحب الجنتين

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، نواصل حديثنا اليوم بإذن الله تبارك وتعالى في تفسير هذه السورة المباركة، سورة الكهف.

وقد انتهى الحديث بنا عند ثواب المؤمنين، الوارد في قول الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[1].

واليوم نكمل تفسير بعض آيات تلك السورة المباركة، ونتعرض فيها لقصة صاحب الجنتين، فقد ذكر الله تبارك وتعالى بعد ذلك قصة لبعض الناس المتكبرين المتغطرسين، وهي القصة الثانية في هذه السورة، قال ﷻ: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴾[2].

قال الإمام ابن كثير- رحمه الله- : (يقول الله تعالى بعد ذكر المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم،

---

(١) الكهف: ٣١ .

(٢) الكهف: ٣٢ - ٣٣.

فضرب لهم مثلاً برجلين، جعل الله ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أي: بستانين من أعناب محفوفتين بالنخل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجود؛ ولهذا قال: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: خرَّجت ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: ولم تنقص منه شيئاً ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: والأنهار تتخرق فيهما هاهنا وهاهنا)[1].

وهذين الرجلين اللذين قصَّ علينا ربنا قصتهما قيل: إنهما كانا شريكين من بني إسرائيل، اقتسما الشركة فاشترى الكافر بنصيبه ضياعاً وعقاراً، وصرف المؤمن نصيبه في وجوه الخير والإحسان، فآل حالهما إلى ما ذكره الله تبارك وتعالى.

والله ﷻ يضرب لنا في القرآن الأمثال الواقعية لنأخذ منها الدروس والعبر، ونتعظ من هذه الدروس التي يجمعها لنا ربنا من عصور مختلفة من تاريخ البشرية، ومعنى: ﴿وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي: جعلنا لهما سوراً يحيط بهما من النخل.

ثم يقول ﷻ: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[2] أي: أن هذه الثمار الكثيرة جعل الله له منها أموالاً وفيرة، فأصابه بسبب ذلك العُجب والكبر والغرور، وتحدث حديث المتكبر المتغطرس غروراً وتكبراً ؛ كما

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٥٧).

(٢) الكهف: ٣٤.

فعل قارون ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾[1]، وقال عن أمواله وكنوزه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾[2].

وهنا يقول صاحب الجنتين لصاحبه أو شريكه المؤمن وهو يحاوره، يخاطبه بنفس لهجة قارون المتكبرة المتغطرسة قائلاً له: ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ أنا أكثر منك أموال وأكثر منك رجال وعبيداً وأولاداً، ظناً منه أن في ذلك قوة ومنعة، واغتراراً منه بما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار في جوانبها، ظاناً بأنها لا تفنى ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله ﷻ، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة، وهكذا إن لم يتدارك الغني نفسه بطاعة الله، وأداء الزكاة، وصوم رمضان، والحج، والطاعات والعبادات المختلفة، فإنه يصبح حاله كحال هذا الإنسان، يغتر بكثرة الأموال، وكثرة العقارات، وكثرة ما يملك في هذه الدنيا، فيظن أنه مخلَّد فيها.

فالغني المؤمن هو الذي لا يترك صلاةً، ولا صوماً، ولا حجَّاً، ولا أي عبادة من العبادات التي أوجبها الله تعالى عليه، وحاله كما قال سبحانه وتعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[3] فالصلاة والزكاة وسائر العبادات تربي هذا الغني، وتطهر

---

(١) القصص: ٧٩ .

(٢) القصص: ٧٨ .

(٣) النور: ٣٧.

نفسه من البخل، ومن الكبر، ومن الغرور، فهو يصلي مع الناس، ويأكل مع الناس، ويتصدق على الفقراء والمحتاجين، ويعرف ما معنى هذه الحياة حق المعرفة .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ إشارة لأهمية الحوار، فصاحبه أو شريكه المؤمن يتحاور معه، ويقارعه الحجة بالحجة، ويجادله بالتي هي أحسن، يدعوه إلى الله تعالى، ويصحح له مفاهيمه الخاطئة عن الربِّ والدين والكون والحياة، فالحوار مطلوب من المسلم مع غير المسلم، لإقامة الحجة والبرهان والدعوة إلى الله تبارك وتعالى، والذي يهرب من الحوار ويرفضه هو الضعيف الذي ليس له حجة .

ثم قال الله جل وعلا حاكياً عن حال ذلك المتكبر المغرور بما آتاه الله من متاع الدنيا: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾[1].

وقوله: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ أي: بكفره وتمرُّده وتكبره وتجبره وإنكاره للبعث والمعاد ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ وذلك اغترارٌ منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطَّردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أي: كائنة ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ أي: ولئن كان معاد ورجعة ومردّ إلى الله - فهو شاكٌّ في البعث والرجوع إلى الله تعالى- ليكونن لي هناك أحسن

---

(١) الكهف: ٣٥، ٣٦.

من هذا لأن لي مكانة وحظوة عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[1]، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[2]، أي: في الدار الآخرة، تألى على الله، عز وجل[3].

إن طول الأمل من أعظم البلايا التي تجرّ على الإنسان ضياع الدين وضياع الدنيا ورائه، فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «**صلح أمر أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلك آخرها بالبخل والأمل**»[4].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: خط النبي ﷺ خطاً مربعاً، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه، وخط خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: «**هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به** - أو: **قد أحاط به** - **وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا**»[5].

---

(١) فصلت: ٥٠.

(٢) مريم: ٧٧.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٥٧).

(٤) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٤٥) (١٣/ ١١٦) وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣٤٢٧) (٧/ ١٢٣٦).

(٥) رواه البخاري (٦٤١٧) (٨/ ٨٩).

وعن أنس ﷺ قال: خط النبي ﷺ خطوطاً، فقال: «**هذا الأمل وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب**»[1].

يعني: جاءه الأجل قبل أن يبلغ الأمل، فطول الأمل مهلكة للإنسان، فعلى المسلم أن لا يطيل الأمل، وأن يكثر العمل للدار الآخرة.

وكيف يتخلص الإنسان من طول الأمل؟ بالإكثار من ذكر الله ﷻ، وبالإكثار من ذكر الموت، هادم اللذات، ومفرق الجماعات، فإنه لا يذكره إنسان في ضيق إلا وسعه الله عليه، ولا في سعة إلا ضيقها الله عليه، بمعنى أنه إذا كان هذا الإنسان في نعمة فإنه لا يغتر بهذه النعمة إذا تذكر الموت، وإذا كان في ضيق من عيشه وحياته فإنه عند ذكره للموت لا يضجر، بل يصبر ويحتسب، فإن ذكر الموت خير عظيم للإنسان.

ثم يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾[2].

---

(١) رواه البخاري(٦٤١٨) (٨/ ٨٩).

(٢) الكهف: ٣٧ – ٤١.

انظروا إلى أسلوب القرآن في الحوار، ترك الكافر يقول قوله ويعرض رؤيته ثم تعقبها وردَّ عليها، وهكذا ينبغي إذا أردت أن تحاور إنساناً، أن تترك له فرصة الكلام والبيان، حتى يقول ما يشاء، فإذا انتهى من كلامه عدت بعد ذلك وحاورته.

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾[1] ينبغي على الإنسان أن يتذكر أصله، ومادة خلقه، فقبل أن يغتر بجاهه وماله وجماله وقبيلته وحسبه ومنصبه وجاهه عليه أن يتذكر أصل جده الأول آدم – عليه السلام –، وهو التراب والطين، وليتذكر أصله القريب من الماء المهين، النطفة، ثم تطور الخلق حتى يصبح الإنسان كبيراً، مكتمل النمو، سوياً عاقلاً، إن تذكر ذلك جيداً يحول بين الإنسان وبين التكبر والتعالي والتجبر.

ولذلك لما رأى مطرف بن عبد الله بن الشخير المهلَّب بن أبي صفرة يتبختر في مشيته مزهوَّاً بلباسه وزينته، فقال له: يا عبد الله، ما هذه المشية التي يبغضها الله تعالى؟ فقال له: أتعرفني؟ قال: نعم، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت تحمل عذرة. فمضى المهلب وترك مشيته[2].

وتأمل هذه العبارة التي لخصت حياة الإنسان كلها (أوَّلُك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت تحمل عذرة) هذا هو أنت أيها الإنسان، فلماذا الغرور؟ ولماذا الكبر؟.

---

(١) الكهف: ٣٧.

(٢) انظر: «البحر المحيط في التفسير» لأبي حيان (١٠/ ٢٧٧).

ثم قال الله تبارك وتعالى حاكياً كلام ذلك الرجل المؤمن وهو يحاور الكافر:

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾[1] أعلن عقيدته بكل وضوح وصراحة، وهكذا ينبغي للمؤمن إذا أراد أن يحاور، أن يكون واضحاً وصريحاً، لا أن يعمي الكلام ويدلس فيه ويتكلم بكلام لا يظهر لخصمه ومحاوره حقيقة موقفه وعقيدته، ولا أن يظهر لخصمه ما يرضيه، وإنما يظهر له ما يرضي الله تبارك وتعالى حتى ولو كان هذا الكلام يغضبه.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾[2] خلط الموعظة البليغة بالنصيحة والتذكير بالله تبارك وتعالى، فجمع في كلامه بين الترغيب والترهيب، وقول: (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) يقي من العين والحسد بإذن الله تعالى، فمن قال ذلك على شيء أعجبه لم يضرّه حسد ولا عين ويحفظه الله جل وعلا .

﴿قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[3] أي: حمدت الله على ما أنعم به عليك، حيث أعطاك من المال والولد والرجال ما لم يعط غيرك، اعترافاً منك بقوته، وإقراراً بعجزك، وإيماناً بأنه لو شاء لسلبك هذا العطاء الذي جعلته موضع فخرك

---

(١) الكهف: ٣٨.

(٢) الكهف: ٣٩.

(٣) الكهف: ٣٩.

واعتزازك، لأَنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، كما قال بعض السلف: من أَعجبه شيءٌ من ماله وولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إِلا بالله .

عن أبي موسى ﷺ، قال: أتى عليَّ النبيُّ ﷺ وأنا أقول في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال: «**يا عبد الله بن قيس، قل: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة**»، أو قال: «**ألا أدلك على كلمة هي كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله**»[1].

﴿**إِن تَـرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا**﴾[2] أي: إن ترني أَمامك أَقل منك مالاً وأولاداً وأعواناً، أي لأجل ذلك تكبرت عليَّ، فأَملي في فضل الله أن يبدِّل ما بي وبك من الفقر والغنى فيرزقني لإيماني جنة خيراً من جنتك التي كانت سبباً في طغيانك وكفرك بربك[3].

فعلى المسلم إذا رأى من نفسه أو أهله أو ولده أو ماله شيئاً يعجبه أن يقول: (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) فيرد الأمر إلى الله تبارك وتعالى، ويرد النعمة إلى الله تعالى، ﷻ فليذكر المسلم ربه تبارك وتعالى عند نعمته، فإن ذكر الله ﷻ على النعمة يديمها، وإن لم يفعل فقد يصاب بالعين، والعين حقٌّ كما قال النبي ﷺ، ففي

---

(١) رواه البخاري(٦٣٨٤) ومسلم(٢٧٠٤).

(٢) الكهف: ٣٩ .

(٣) انظر: «التفسير الوسيط للقرآن الكريم» لمجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ط: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية (٥/ ٨٧٤) .

الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استُغسلتم فاغسِلوا**»[1] .

والعين لا تأتي بالضرورة من عدوٍّ كارهٍ، بل ربما تأتي من محب، وربما يصيب الإنسان نفسه أو ولده أو أهله أو ماله بالعين وهو لا يشعر، ولهذا فلا ينبغي للمسلم أن يفرِّط في تحصين نفسه وأهله وماله بذكر الله ﷻ .

قال تعالى: ﴿ **فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا** ﴾[2]، أي أن الله قادر على أن يبدِّل حالي وحالك فتصبح أنت الفقير المبتلى بهذا الأمر، فيرسل عليها حسباناً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي عذاباً من السماء.

وقال ابن كثير- رحمه الله-: (والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها؛ ولهذا قال: ﴿**فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا**﴾[3] أي: بلقعاً تراباً أملس، لا يثبت فيه قدم)[4].

﴿ **أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا** ﴾ غوراً: أي غائراً في الأرض، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، أي: يصبح ماؤها غائراً منقطعاً ذاهباً لا تناله الأيدي ولا

---

(١) رواه مسلم (٢١٨٨).

(٢) الكهف: ٤٠.

(٣) الكهف: ٤٠.

(٤) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٥٩).

الدلاء، ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾[1] يعني: إن طلبته لم تجده، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾[2].

قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾[3].

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي: أحاط العذاب بثمر جنته، وذلك أن الله تعالى أرسل عليها ناراً فأهلكتها وغار ماؤها ﴿فَأَصْبَحَ﴾ صاحبها الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أي: يصفق بيده على الأخرى، ويقلِّب كفيه ظهراً لبطن تأسفاً وتلهفاً ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ أي ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ سقوفها ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ أي: جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يمنعونه من عذاب الله ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾[4] ممتنعاً منتقماً، أي: لا يقدر على الانتصار لنفسه وقيل: لا يقدر على رد ما ذهب عنه[5].

---

(١) الكهف: ٤١.

(٢) الملك: ٣٠.

(٣) الكهف: ٤٢ – ٤٣.

(٤) الكهف: ٤٣.

(٥) «تفسير البغوي» (٥/ ١٧٣).

تأملوا هذا المشهد: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[1] يُصفِّق كفَّيه متأسِّفاً مُتلِّهفاً على الأموال التي أذهبها عليها، عندما رأى جنته – بستانه- محطمة قد سقطت سقوفها على جدرانها، فأصبحت خراباً والعياذ بالله ﷻ، وعندها ندم وقال: يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ؛ ولم ينفعه ندمه على الشرك، ورغبته في التوحيد؛ لأن ذلك كان لأجل حفظ ماله ولطلب الدنيا، فلهذا ما صار توحيده مقبولاً عند الله تبارك وتعالى، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله، وهل هناك أحد يستطيع أن ينصر إنساناً من دون الله تبارك وتعالى، لا يمكن لإنسان ولا لـفئة – أي: جماعة - مهما كانت هذه الفئة كبيرة وقوية أن تنتصر له، كما لا يستطيع هو أن ينتصر لنفسه، فالعذاب واقع من عند الله القوي الجبار القاهر سبحانه، ومن الذي يستطيع دفع عذاب الله.

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[2].

---

(١) الكهف: ٤٢.

(٢) الكهف: ٤٤، يعني: في القيامة، قرأ حمزة والكسائي (الوِلاية) بكسر الواو، يعني: السلطان، وقرأ الآخرون بفتح الواو (الوَلاية) من: الموالاة والنصر، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٧]، قال القتيبي: يريد أنهم يولونه يومئذ ويتبرؤون مما كانوا يعبدون . وقيل: بالفتح: الربوبية وبالكسر: الإمارة. ﴿ٱلْحَقِّ﴾ قرأها برفع القاف: أبو عمرو والكسائي، على نعت الولاية، وقرأ الآخرون بالجر على صفة الله، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام-٦٢] .
انظر: «تفسير البغوي» (٥/ ١٧٣).

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ أي: في ذلك المقام، في الوقت الذي يريد الله ﷻ إظهار كرامته لأوليائه المؤمنين، هنالك النصرة لله وحده تبارك وتعالى، الوَلاية، أي: النصرة لله وحده، لا يقدر عليها أحد سواه ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي: الأعمال التي تكون لله عز وجل، ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة[1]، أجر كبير، وحسنات وافرة، وخيرٌ عاقبة.

فاصبر أيها المؤمن إن العاقبة للمتقين، ولا يكون نظرك أيها الإنسان محدوداً محصوراً في هذه الحياة الدنيا، بل اجعل نظرك يمتدّ للدار الآخرة وما أعده الله فيها لأوليائه، واطلب من ربك أن يكون لك بالجنة منزلة عالية، ومكانة سامية في جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

اسأل الله ﷻ أن يتمِّم علينا وعليك النعمة، وأن تكون عاقبة أمرنا وأمرك خيراً، وأن تكون العاقبة لك ولنا ولجميع أهل الإسلام فرجاً ونصراً وعزاً ورفعةً في الدنيا والآخرة .

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه .



(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٦٠).

مثل الحياة الدنيا وحال الآخرة

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، نتابع تفسير هذه السورة المباركة، سورة الكهف، وقد وقف الحديث بنا عند قصة أصحاب الجنتين، ونرى في هذه السورة أنها تركز في قصصها ودروسها على فناء هذه الحياة، وعلى أن الحياة الحقيقية التي تستحق منا العمل والجد والاجتهاد لم تأت بعد، وهي الدار الآخرة، وأننا موجودون في هذه الحياة لنزرع للدار الآخرة.

ونتعرض اليوم بإذن الله تعالى لآيات جديدة من تلك السورة المباركة .

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾[1]، نلاحظ التركيز على أن هذه الحياة ليست هي الهدف، وفي هذا رد على كثير من الناس الذين جعلوا هدفهم الدنيا، وضيعوا وأهملوا الهدف الحقيقي وهو الآخرة .

قال الإمام الطبري – رحمه الله– : (يقول عزّ ذكره لنبيه محمد ﷺ : واضرب لحياة هؤلاء المستكبرين – الذين قالوا لك: اطرد عنك هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ إذا نحن جئناك – الدنيا منهم مثلاً يقول: شبهاً ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

---

(١) الكهف: ٤٥ .

يقول: كمطر أنزلناه من السماء ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: فاختلط بالماء نبات الأرض ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يقول: فأصبح نبات الأرض يابساً متفتتاً ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ يقول: تطيِّره الرياح وتفرّقه.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[1] يقول: وكان الله على تخريب جنة هذا القائل حين دخل جنته: ﴿مَّآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾[2] وإهلاك أموال ذي الأَمْوَالِ الباخلين بها عن حقوقها، وإزالة دنيا الكافرين به عنهم، وغير ذلك مما يشاء قادر، لا يعجزه شيء أراده، ولا يعْييه أمرٌ أراده.

يقول: فلا يفخر ذو الأموال بكثرة أمواله، ولا يستكبر على غيره بها، ولا يغترنّ أهل الدنيا بدنياهم، فإنما مَثَلُها مثل هذا النبات الذي حَسُن استواؤه بالمطر، فلم يكن إلا رَيْثَ أن انقطع عنه الماء، فتناهى نهايته، عاد يابساً تذروه الرياح فاسداً، تنبو عنه أعين الناظرين، ولكن ليعمل للباقي الذي لا يفنى، والدائم الذي لا يبيد ولا يتغير)[3].

هؤلاء المستكبرون من أمثال عيينة، والأقرع - من صناديد قريش -، لما تكبروا على سلمان وخباب وصهيب، نزلت هذه الآيات لتعرَّفهم حقيقة الحياة الدنيا، وضربت مثالاً حياً للدنيا، والقرآن مليء بالأمثال ليقرِّب الصورة للناس الذين لم

---

(١) الكهف: ٤٥ .

(٢) الكهف: ٣٥ - ٣٦ .

(٣) «تفسير الطبري» ، تحقيق أحمد شاكر (١٨/ ٢٩، ٣٠) .

ولن يستطيعوا أن يفهموها على حقيقتها، ولكن الله يُقرِّب لهم حقيقتها بضرب المثال.

فالدنيا كمطر نزل من السماء فاختلط بالحب الذي في الأرض، فنما هذا الحب وظهرت زهوره وثماره، وبعد الجمال والخضرة، وبعد هذه الصورة الرائعة وهذا المنظر البديع، تحول ذلك النبات الأخضر إلى هشيم يابس متفتت تذروه الرياح، حتى كأنه لم يكن، فبعد الجمال والخضرة وبعد القوة والمنظر البديع تحول إلى هباء منثور، وهكذا الحياة الدنيا، وهكذا الإنسان مهما بلغ من الجمال والقوة في نفسه، فلو تفكر في موته، ولو تفكر في الدود عندما يأكله، ولو تفكر في أنه سيصبح رماداً وتراباً لما طغى، ولما تكبر، ولما ظلم أحداً، ولكنه نسي ذلك.

ثم قال ﷻ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[1].

قال الإمام الطبري– رحمه الله–: (يقول تعالى ذكره: المال والبنون – أيها الناس – التي يفخر بها عيينة والأقرع، ويتكبران بها على سلمان وخباب وصهيب، مما يتزين به في الحياة الدنيا، وليسا من عداد الآخرة ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ يقول: وما يعمل سلمان وخباب وصهيب من طاعة الله، ودعائهم ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه، الباقي لهم من الأعمال الصالحة بعد فناء الحياة الدنيا، خيرٌ يا

(١) الكهف: ٤٦ .

محمد عند ربك ثواباً من المال والبنين التي يفتخر هؤلاء المشركون بها، التي تفنى، فلا تبقى لأهلها ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[1] يقول: وما يؤمل من ذلك سلمان وصهيب وخباب، خير مما يؤمل عيينة والأقرع من أموالهما وأولادهما، وهذه الآيات من لدن قوله: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾[2] إلى هذا الموضع، ذُكر أنها نزلت في عيينة، والأقرع)[3].

كان المشركون في الجاهلية يتفاخرون بكثرة الأولاد وكثرة الأموال، وفعل فعلهم في هذا الزمان يعتبر من صفات أهل الجاهلية، فمن تفاخر بماله ففيه صفة من صفات أهل الجاهلية، ومن تفاخر بكثرة أهله وقبيلته وعشيرته وأعوانه وأنصاره ففيه صفة من صفات أهل الجاهلية، وليس فعل العقلاء، ولا فعل المؤمنين، ولا فعل الصالحين، ولذا قال سبحانه: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[4] فموازين الله تختلف عن موازين البشر، البشر يزنون الناس بالدرهم والدينار، والله تبارك وتعالى يزن الناس بميزان التقوى والصلاح ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[5].

---

(١) الكهف: ٤٦.

(٢) الكهف: ٢٧.

(٣) «تفسير الطبري»، تحقيق أحمد شاكر (١٨/ ٣١).

(٤) الكهف: ٤٦.

(٥) الحجرات: ١٣.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[1] فسرَّها النبي ﷺ بقوله: «**استكثروا من الباقيات الصالحات**» قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «**التكبير، والتهليل، والتسبيح، والتحميد، ولا حول ولا قوة إلا بالله**»[2].

هذه هي الباقيات الصالحات التي قد يستغربها الإنسان، هذه هي التي تقابل الدنيا والمال مهما بلغ، وتتغلب عليهما، هذه الكلمات اليسيرة في نظرنا، لكنها في ميزان الله تبارك وتعالى عظيمة جليلة .

وجاء عن النبي ﷺ في فضل هذه الباقيات الصالحات أحاديث، منها:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده**»[3].

وقوله ﷺ : «**ما على الأرض أحد يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إلا كفَّرت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر**»[4].

كفارات للذنوب، كمثل الريح التي تأتي على أوراق الشجر الجافة فتسقطها.

---

(١) الكهف: ٤٦ .

(٢) رواه أحمد في مسنده (١١٧١٣) (١٨/ ٢٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال محققو المسند: حسن لغيره.

(٣) رواه البخاري (٦٤٠٦) ومسلم (٢٦٩٤) .

(٤) رواه الترمذي (٣٤٦٠) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (١٨١٨) (٢/ ٩٨٥).

وقوله ﷺ: «**لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»[1].

كلما ذكرت ربك بواحدة من تلك الكلمات غرست لك الملائكة شجرة في الجنة، وكلما أمسكت عن الذكر أمسكت الملائكة عن الغرس، فما أشد غفلتنا، وما أشد تقصيرنا، وكم نضيع من فرص، وكم نفوت على أنفسنا من الأشجار والنخيل والبساتين ببخلنا عن ذكر الله سبحانه وتعالى.

وقال سعيد بن جبير ومسروق وإبراهيم: الباقيات الصالحات هي: الصلوات الخمس. ويروى هذا عن ابن عباس، وعنه رواية أخرى: أنها جميع الأعمال الصالحة، وهو قول قتادة[2].

وعلى هذا القول الأخير: كل عمل صالح من صلاة وصيام وصدقة وحج وعمرة، كلها خير من المال والبنون.

ثم قال ﷻ: ﴿ **وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا** ﴾[3].

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٦٢) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (١٦٥٣).

(٢) انظر: «تفسير البغوي» (٥/ ١٧٥).

(٣) الكهف: ٤٧.

قال ابن عباس: تُسيَّر الجبال عن وجه الأرض، كما يُسيَّر السحاب في الدنيا، ثم تكسّر فتكون في الأرض كما خرجت منها[1].

يُسيِّر الله تبارك وتعالى الجبال، أي يفتتها فتصبح رماداً، فتأتي عليها الرياح فتنثرها في الأرض، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[2] هذه الجبال، فكيف بالمتكبر والمتغطرس والمتعالي، إذا كان هذا فعل الله بالجبال التي هي أضخم منه بملايين المرات، ينسفها الله تبارك وتعالى ويفتتها وينقلها من مكان لآخر، فكيف بهذا الضعيف المسكين الذي يظن في نفسه القوة، وهو ضعيف .

وقوله ﷻ : ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: ظاهرة ليس فيها مكان يختبئ فيه الإنسان، وكل شيء فيها مكشوف، ليس عليها شجر ولا جبل ولا نبات، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[3] أي: لم نترك منهم أحداً، ليس لأحد واسطة عند الله ﷻ حتى يُترك بلا حشر ولا حساب، فالكل يُخرج من القبور، والكل يُحشر للحساب والجزاء، الكبير والصغير، والرجل والمرأة، والغني والفقير، والعظيم والحقير، كلهم يحشرون بلا استثناء.

---

(١)«زاد المسير في علم التفسير»، لابن الجوزي (٣/ ٨٩) .

(٢) طه: ١٠٥ – ١٠٧.

(٣) الكهف: ٤٧.

﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِدًا ﴾[1] عُرضوا على ربهم بعد أن رأوا آيات الله ﷻ وقدرته في البعث والنشور، وقد أعادهم ربهم جل وعلا كما كانوا يوم خلقهم أول مرة، بلا مال ولا جاه ولا منصب ولا شيء مطلقاً، يُعرضون على ربهم صفًّا وراء صف، دون اختلاط ولا اختلال، أمة تتلوها أمة، وزمرة تتلوها زمرة ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ هذا توبيخٌ للمشركين المنكرين للمعاد، وتقريعٌ لهم على رءُوس الأَشهاد، يقال لهم: لقد جئتمونا على هيئة تشبه الهيئة التي كنتم عليها عند خلقكم أَول مرة، حفاة عراةً غُرْلاً – أَي: غير مختونين –، كما قال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها وأرضاها، قال: «تُحشرون حفاة عراة غُرلاً» قالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «الأمر أشدّ من أن يهمهم ذاك»[2].

من شدة الهول لا ينظر الرجل للمرأة، ولا المرأة للرجل، فكلٌ في شغله، وكلٌ في هَمِّه وكربه ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[3]، فأيُّ كرب هذا ؟!.

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِدًا ﴾[1] هذا خطاب لمنكري البعث من المشركين والملحدين ومن على شاكلتهم، والمعنى: لقد زعمتم في الدنيا ألن نجعل لكم موعداً للبعث والجزاء.

---

(١) الكهف: ٤٨ .

(٢) رواه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

(٣) عبس: ٣٧.

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[٢] .

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى يضع الكتاب، ويُقصَد به صحائف الأعمال، الكتب التي دُوِّنتْ فيها أعمال العباد، فتوضع في أَيدى أصحابها، يأخذ كل منهم كتابه بيمينه أو بشماله، وحينئذ ترى العصاة المجرمين خائفين مما في الكتاب من الجرائم التي اقترفوها، والذنوب التي وقعوا فيها، ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ ترتفع منهم أَصوات الحسرة، ويتمنون الموت والهلاك حتى لا يروا العذاب الأليم، والعصاة يعرفون أنفسهم ويعرفون ماذا فعلوا في الدنيا، يعرفون كم سفكوا من دماء؟! وكم سرقوا من أموال؟! وكم ظلموا وآذوا من عباد الله؟! ولهذا يقولون عندما يروا كتابهم وما فيه من مصائبهم يعرفون أنفسهم ﴿يَٰوَيْلَتَنَا ﴾ أي: يا هلاكنا ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ كلما نظروا في الكتاب وجدوا أموراً صغيرةً وأموراً كبيرةً، ووجدوا أموراً عظيمةً وأموراً حقيرةً، فهو كتاب كامل لم يترك شاردة ولا واردة إلا أحصاها وجمعها وكتبها وعدَّها .

---

(١) الكهف: ٤٨ .

(٢) الكهف: ٤٩.

قال قتادة: اشتكى القوم الإحصاء وما اشتكى أَحد ظُلماً، فإياكم ومحقرات الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول: يا ويلتاه ضجوا إِلى الله تعالى من الصغائر قبل الكبائر.

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ أي: ما عملوه في الدنيا وجدوه مسطوراً في كتاب كل منهم، حاضراً بين أَيديهم، يرونه بأم أعينهم، كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[1]، فالله ﷻ لا يثبت الأعمال بالكتابة فحسب، وإنما يُصوِّرها أيضاً، وهذا المعنى واضح في قوله ﷻ: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ﴾ لأن الآثار لا تكتب، وإنما تصور آثار الأقدام إلى طريق الخير أو الشر، وهذه الآية كقوله ﷻ: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾[2].

وفي الحديث يقول النبي ﷺ: «إنَّ الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك

---

(١) يس: ١٢ .

(٢) النجم: ٤٠ .

اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافقون، فيقول الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]»[2].

وقد يكون المراد: وجدوا ثواب أعمالهم وجزاءهم على أعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾[3].

﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ فلا يأخذ أَحداً بجُرم أَحد، ولا يأخذه بما لم يعمله، بل يجازي المطيع بالثواب ويزيد له في الأجر، ويعاقب العاصي بمقدار معصيته بلا زيادة، وقد يعفو ويصفح سبحانه وتعالى .

ومن تمام عدله سبحانه أنه يقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، فحتى بين الحيوانات يُقام ميزان العدل عند الله جل وعلا، فما بالك بما يجري بين الناس في الدنيا من مظالم، لا شك أن الله جل وعلا يقيم العدل المطلق بينهم ويقتص لبعضهم من بعض يوم القيامة .

ولهذا فالواجب التحلل من مظالم العباد اليوم قبل يوم القيامة، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت عنده مظلمةٌ لأخيه فليتحلّله منها، فإنه ليس

---

(١) هود: ١٨.

(٢) رواه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

(٣) الزلزلة: ٧ – ٨.

ثَمَّ دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه»[1].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه .



(١) رواه البخاري (٦٥٣٤) .

عداوة الشيطان للإنسان

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة ويا أحباب رسول الله ﷺ، نتابع حديثنا في تفسير سورة الكهف، وقد وقفنا فيها عند قول الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾[1].

وجاءت هذه الآية بعد أن ذكّر الله تبارك وتعالى المستكبرين المتجبرين بحقيقة هذه الحياة الدنيا، وبالحساب الدقيق الذي لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وبعد أن ضرب لهم المثل في قصة أصحاب الجنتين، جاء ليذكرهم بقصة كبيرهم الذي تكبَّر وطغى وتمرَّد على الله تبارك وتعالى، أعني إبليس اللعين الذي عصى الله جل وعلا فعاقبه وغضب عليه ولعنه، فمن تكبر وعصى وتجبر فهو على طريق الشيطان، وعلى طريق إبليس والعياذ بالله تبارك وتعالى.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ﴾ أي: سجد الملائكة جميعاً امتثالاً وطاعةً لله تبارك وتعالى، والسجود لآدم سجود احترام لا سجود عبادة ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ أي: ما عدا إبليس، فإنه لم يكن من الساجدين إباءً منه واستكباراً، وقد حمله

---

(١) الكهف: ٥٠.

على هذا التمرد أنه ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ بينت الآية صراحة أن إبليس ليس من الملائكة، وأنه من الجن، والجن خلقوا من نار، وخلقت الملائكة من نور، وخلق بنوا آدم من طين، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[1].

فإبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، ولماذا دخل في الملائكة؟ قيل: لأنه كان يُظهر التعبد ويريد أن يتشبه بالملائكة فكان معهم، لكنه فسق عن أمر ربه، أي: خرج عن طاعة ربه تبارك وتعالى، فالفسق هو الخروج عن طاعة الله تعالى، ومن هنا سمي العاصي فاسقاً.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ﴾[2] بهذا الاستفهام وبَّخ الله المشركين والعصاة وأنكر عليهم أن يستجيبوا لإبليس فيتخذوه وذريته أولياء وأعواناً لهم من دون الله، مع علمهم بقبائح الشيطان وأباطيله، ومع أنه ظاهر العداوة لكم، فقد أخرج أبويهم- آدم وحواء - من الجنة حَسَدًا لهما، والحسد كامن في نفسه لذريتهما، والعداوة تابعة للحسد، فلا ينبغي لعاقل أن يستمع لما يزيِّنه له عدوه.

وفي هذا المقطع من الآية إشارة إلى ذرية إبليس، فهم يتوالدون كما يتوالد بنوا آدم[3]، ولهم ذرية كما أن لبني آدم ذرية، وهذا بخلاف الملائكة الذين ليست لهم ذرية .

---

(١) الأعراف: ١٢.

(٢) الكهف: ٥٠.

(٣) انظر: «تفسير الطبري» بتحقيق العلامة أحمد شاكر (١/ ٥٠٦) .

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ﴾[1]: مخاطبة للعقل والمنطق، فيا من له عقل راجحٌ سليم كيف تطيع عدوك؟ هل يرجوا لك خيراً؟ هل يرجوا لك مستقبلاً؟ هل يرجوا لك فلاحاً وسعادةً حتى تطيعه وتتخذه ولياً من دون الله؟! ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾.

وانظر إلى هذه المقارنة التي تثير العواطف في نفس المؤمن، فتجعله يلجأ إلى الله تبارك وتعالى، ويعود نادماً معترفاً بخطئه، فيقول: بلى أنت يا ربِّ أولى بي من الشيطان، بل أنت يا رب أولى بي من نفسي، ولن أتخذ من دونك أي ولي.

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[2] أي: بئس البدل عن الله تعالى للظالمين: إبليس وذريته، أو بئس عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الله، بئس ما بدل به الظالمون، بدلوا طاعة الله الخالق الرحيم الغفور الكريم الحليم الرازق المعطي، بدلوا طاعته جل وعلا بطاعة عدو الله إبليس الذي لا يرجوا للإنسان إلا نار جهنم والعياذ بالله ﷻ.

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[3].

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾: ما حضروا ولا شهدوا يوم خلقت السماوات والأرض، ولم استشرهم في ذلك، وما حضروا ولا

---

(١) الكهف: ٥٠.

(٢) الكهف: ٥٠.

(٣) الكهف: ٥١.

شهدوا خلق أنفسهم، يعني: خلق بعضهم، ما شهد بعضهم خلق البعض الآخر، ما كان أحدهم يشهد هذا الخلق الذي يخلقه الله تبارك وتعالى.

وهذه الآية الكريمة تبين عدم صلاحية إبليس وجنوده لأن يكونوا شركاء لله وأعوانًا له – ولا غيرهم، فليس لله معين ولا شريك؛ تعالى الله عن ذلك –، كما بينت ضلال تابعيهم وغباءهم، حين اتخذوهم أولياء لهم من دون الله، والمعنى: أن الله سبحانه هو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما وحده، ولم يهيئ لإبليس وذريته مشاهدة هذا الخلق ولا المشاركة فيه، فقد خلقت السماوات والأرض قبل خلق إبليس وذريته، فكيف جعلهم أتباعهم الظالمون أولياء لهم من دون الله، وهم عاجزون عن الخلق والتدبير ولا يعلمون شيئاً عن كيفية خلقهم وتدبير أمورهم!! .

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[1]: ولا ينبغي لي – وأنا القوى العزيز – أن أحتاج إلى مُعِين أو نصير يساعدني في الخلق والتدبير من هؤُلاء الضالين المضلين.

قال الحافظ ابن كثير: (يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم، لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلقي للسموات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وحدي، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير، ولا مشير ولا نظير، كما قال: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى

(١) الكهف: ٥١.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾[1]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾[2] قال مالك: أعواناً)[3].

يقول ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾[4] : هذا مشهد من مشاهد يوم القيامة، ودائماً في القرآن يُصوِّر لنا الله ﷻ لوحات عن مشاهد يوم القيامة التي لا يُمكن أن نتخيلها، ولكنك عندما تقرأها من خلال القرآن فكأنك ترى هذا المشهد صورة قريبةً أمام ناظريك، كأنك تراه رأي العين من دقة الأوصاف التي تأتي في كتاب الله تبارك وتعالى.

وفي هذه الآية يخبر الله تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، يوم يقول لهم العليُّ الأعلى مؤَنِّباً لهم وموبِّخاً على اتخاذهم إبليس وذريته أَولياء لهم من دونه: ادعوا شركاءكم الذين عبدتموهم من دوني في الدنيا، لينقذوكم من العذاب المحيط بكم؛ وفي هول الموقف ينادي الظالمون شركَاءهم فلا يلبُّون نداءَهم، ولا يستجيبون لاستغاثتهم؛ لأنهم في مهلكهم مشتركون، وفي جهنم خالدون، فكيف يستجيبون؟ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾ أي: وجعلنا بين الداعين

---

(١) سبأ: ٢٢ – ٢٣.

(٢) الكهف: ٥١.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٦٩).

(٤) الكهف: ٥٢.

من المشركين والمدعوين من الشياطين، موبقاً ومهلكاً مشتركاً بينهم، وهو النار التي يصلونها جميعاً والعياذ بالله تعالى.

وروي عن عبد الله بن عمرو ﷺ أنه قال في معنى (موبقاً): واد عميق، فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة. وعن أنس بن مالك ﷺ قال: واد في جهنم، من قيح ودم. وقال الحسن البصري: (موبقاً): عداوة.

قال الحافظ ابن كثير- بعد أن أورد هذه الأقوال- :(والظاهر من السياق هاهنا: أنه المهلك، ويجوز أن يكون وادياً في جهنم أو غيره، إلا أن الله تعالى أخبر أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرَّق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير)[1].

ثم قال ﷻ: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾[2] أي: وشاهد المجرمون النار فأيقنوا أنهم واقعون فيها لا محالة، فالظن هنا بمعنى اليقين، ولم يجدوا مجالاً للهرب من هذا المصير الأليم، كما قال جل وعلا: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[3] عن أبي سعيد الخدري

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٧٠).

(٢) الكهف: ٥٣.

(٣) التوبة: ٤٩.

ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الكافر ليرى جهنم، ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة»[1].

نعوذ بالله العظيم وبوجه الكريم من أن نرى نار جهنم في ذلك اليوم العظيم، ونسأله سبحانه أن يدخلنا الفردوس الأعلى من الجنة برحمته وكرمه وإحسانه.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[2].

القرآن مليء بالأمثال والحجج والبراهين، وصرَّفنا أي: بيَّنا وكرَّرنا وأوردنا على وجوه كثيرة، فالأمثال متكررة في القرآن بأوجه عديدة لمن أراد أن يعتبر، ولمن أراد أن يأخذ الدرس والعظة، فضرب الأمثال للناس في القرآن من أجل أن يتذكروا ويتعظوا، لكن الغالب على الإنسان أنه لا يتعظ ولا يتعلم، ولذا قال سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي: خصومة في الباطل. قال ابن عباس: أراد النضر بن الحارث وجداله في القرآن. وقال الكلبي: أراد به أُبيّ بن خلف الجمحي، وقيل: المراد من الآية الكفار، لقوله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[3]، وقيل: هي على العموم، وهذا أصح[4].

---

(١) رواه أحمد (١١٧١٤) (١٨/ ٢٤٢، ٢٤٣) وقال محققو المسند: «حسن لغيره».

(٢) الكهف: ٥٤.

(٣) الكهف: ٥٦.

(٤) «تفسير البغوي» (٥/ ١٨١).

قال الإمام ابن كثير في معنى الآية: (يقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور، وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى. ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة)[1].

ثم قال ﷻ: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾[2].

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة والمشركين في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات الواضحات، وأنه ما حملهم على ترك الإيمان بعد قيام أدلته ووضوح حجته إلا إصرارهم على العناد واللجاج، وتحديهم للرسول ﷺ أن يُنزل بهم العقاب الذي توعدهم الله به، كما أنزله بالأمم السابقة التي أصرت على الكفر والعناد، وقد حكى الله طلبهم العذاب في مواضع من كتابه، منها: قول بعضهم لنبيهم: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[3].

وآخرون قالوا: ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[4].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٧١).

(٢) الكهف: ٥٥.

(٣) الشعراء: ١٨٧.

(٤) العنكبوت: ٢٩.

وقالت قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]، و﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[3] من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم، فمن سنة الله في الأولين أن الأمة التي تكذب وتكفر به يعاجلها الله بالعقوبة ويستأصلها، كما فعل بقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وغيرهم من الأمم الذين أفناهم الله تبارك وتعالى، وجعلهم عبرة للناس على مرِّ الدهور والأزمان.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾[4] أي: يرونه ويحل بهم عياناً ومواجهةً جزاء إمعانهم في الكفر والضلال.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾[5].

---

(١) الأنفال: ٣٢.

(٢) الحجر: ٦ – ٧.

(٣) الكهف: ٥٥.

(٤) الكهف: ٥٥.

(٥) الكهف: ٥٦.

وما نبعث الرسل إلى الناس إلا لتبشيرهم بالمثوبة الحسنى إن آمنوا بالله وأَطاعوه فيما شرعه لهم على ألسنتهم، وإنذارهم بالعقاب الخالد إن كفروا به وعصوا رسله ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[1].

ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾[2] أي: ليضعفوا به الحقَّ الذي جاءتهم به الرسل، فالكافرون يستقبلون دعوات الرسل بالإنكار والعناد والمكابرة والمجادلة بالباطل، للقضاء على الحق بعد وضوحه، دون استناد إلى دليل أو برهان، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[3]، ومن أمثلة هذا الجدال بالباطل قول مشركي قريش في القرآن الكريم عندما يتلى عليهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[4]، وقولهم في الرسول ﷺ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[5]، يعنون أَن الرسول ليس من عظماء القريتين، فلا يصح أَن يكون رسولا أنزل عليه القرآن!!.

---

(١) النساء: ١٦٥.

(٢) الكهف: ٥٦.

(٣) الحج: ٨.

(٤) الأنفال: ٣١.

(٥) الزخرف: ٣١.

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾[1] أي: قابلوا آيات الله البينات والحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب بالسخرية والاستهزاء.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾[2].

وأيُّ عباد الله أظلم ممن ذُكِّر بآيات الله فأعرض عنها وتركها ولم يؤمن بها، ونسي ما قدمت يداه، أي: نسي ما عمل من المعاصي من قبل، والجواب: لا أَحد أَشدَّ ظلماً لنفسه مِمَّن أَعرض عن آيات الله البينات، وانصرف عن أدلتها الواضحات إِلى الباطل، فأمعن في ارتكاب الذنوب والآثام ناسياً ما جناه على نفسه وعلى الناس من بغي وعدوان.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ لئلا يفهموه ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمماً وثقلاً ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ﴾ يا محمد ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ إلى الدين ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ وهذا في أقوام علم الله منهم أنهم لا يؤمنون[3].

---

(١) الكهف: ٥٦.

(٢) الكهف: ٥٧.

(٣) «تفسير البغوي» (٥/ ١٣٨)

إن الحق واضح، وأصحاب العقول السليمة يدركون الرشد من الغي ويميزون الحق من الضلال، والله سبحانه حال بين هؤُلاء المشركين وبين الإدراك السليم، فجعل على عقولهم أغشية كراهة أن يفهموه فهماً يؤَدِّي بهم إلى السلوك السوِيِّ؛ لأنهم طبعوا على الخبث والضلال، وجعل الله في آذانهم صَمَماً عن الاستماع إلى الحقائق وإدراكها، وذلك لانصرافهم عن الحق، وتواصيهم بعدم سماعه، حيث قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[1]، ولهذا باعد الله بينهم وبين الإِصغاء والاستفادة منه جزاءَ انصرافهم، ولو علم الله فيهم خيرًا لهداهم وأَسمعهم سماع قبول وإجابة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[2]؛ والمقصود من جعل الله الأَكِنةَ على القلوب، والوَقْر في الآذان أن لا يأخذ بقواهم العلمية نحو الحق لإعراضهم عنه.

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا إِذًا أَبَدًا﴾[3] وإن تدعهم إلى طريق الهدى فلن يستجيبوا لك؛ لأنهم الآن ليسوا أَهلاً للهداية، ولأن الهداية ليست بيدك، وإنما هي بيد الله، وقد حال بينهم وبينها لخبثهم وفساد قلوبهم .

---

(١) فصلت: ٢٦ .

(٢) الأنفال: ٢٣ .

(٣) الكهف: ٥٧.

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾[1].

يعود الله جل وعلا ويبين سبحانه وتعالى أنه الغفور، أي: كثير المغفرة، ذو الرحمة ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ ﴾ أي: أن الله عز وجل يعطيهم الفرصة للتوبة، ويعطيهم الفرصة للرجوع إليه، فلا يعجل لهم العذاب، وهذا من رحمته الواسعة أنه لم يعجل العقوبة للعصاة على أعمالهم، وذلك كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾[2]، فمن رحمة الله تبارك وتعالى بعباده أنه لا يعاجلهم بالعقوبة، يعصون ويتجبرون ويؤذون عباده وأوليائه، فيمهلهم ويؤخرهم إلى أجل، فهو سبحانه يمهل ولا يهمل ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ أي: لهؤلاء الكفار موعد لا يتقدم ولا يتأخر، وليس لهم من هذا الموعد ملجأ ولا منجى، إن هم أصروا على كفرهم، واستمروا على جحودهم وعصيانهم، نعوذ بالله ﷻ من عقابه في الدنيا والآخرة. نفعني الله وإياكم بهدي كتابه .



(١) الكهف: ٥٨.

(٢) فاطر: ٤٥ .

قصة موسى مع الخضر عليهما السلام

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، نواصل الحديث في تأملاتنا في سورة الكهف، وقد وقف بنا الحديث عند القصة الثالثة في هذه السورة، وهي قصة نبي الله موسى مع الخضر - عليهما السلام -، وقال الله تبارك وتعالى في بداية هذه القصة، والتي فيها دروس وعبر كثيرة: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾[1].

عن أُبَيِّ بن كعب ﷺ عن النبي ﷺ قال: «قام موسى النبيُّ ﷺ خطيباً في بني إسرائيل فسُئِلَ: أيُّ الناسِ أعلم؟ فقال: أنا أعلم - نسب العلم إلى نفسه -، فعتب الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: أنَّ عبداً من عبادي بمجمع البحرين، هو أعلم منك. قال: يا ربِّ، وكيف به؟ فقيل له: احْمِلْ حُوْتاً في مِكْتَلٍ - أي: وعاء يشبه القُفَّة -، فإذا فقدتَه فهو ثَمَّ، فانطلَقَ بفتاه - والفتى هو الشاب، وأضيف إلى موسى لأنه كان يخدمه - يوشع بن نون - وكان نبياً من أنبياء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام - وحَمَلا حُوْتاً في مِكْتَلٍ، حتى كانا عند الصخرة وضعا رءوسهما وناما، فانسَلَّ الحوتُ من المِكْتَلِ - أي: أحياه الله تبارك وتعالى بعد أن كان ميتاً، فخرج من المكتل وسقط في البحر - فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وكان لموسى وفتاه عجباً - ومعنى

---

(١) الكهف: ٦٠ .

(سرباً): مسلكاً يذهب فيه، أي: بقي مسلكه محفوراً في الماء ولم يلتئم الماء خلفه - فانطلقا بقيَّة ليلتهما ويومهما، فلما أصبح قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، ولم يجد موسى مَسَّاً من النَّصَبِ حتى جاوز المكان الذي أُمِرَ به، فقال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[1]، قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[2] فلما انتهيا إلى الصخرة، إذا رجل مُسَجَّىً - أي: مُغطى - بثوب - أو قال: تَسَجَّى بثوبه - فسلَّم موسى، فقال الخضر: وأنَّى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى، فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: هل أتبعك على أن تُعَلِّمني مما عُلِّمْتَ رُشْداً. قال: إنك لن تستطيع معي صبراً، يا موسى إني على عِلْمٍ مِن علم الله عَلَّمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على عِلْمٍ علَّمَكَه لا أعلمه. قال: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، ليس لهما سفينة، فمرَّت بهما سفينة، فَكَلَّموهم أن يحملوهما، فعَرَف الخضر فحملوهما بغير نَوْلٍ، فجاء عُصْفُورٌ، فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرةً أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر[3]، فعَمَدَ الخضر إلى لوحٍ من

---

(١) الكهف: ٦٣ .

(٢) الكهف: ٦٤ .

(٣) انظر إلى مثل هذا المثل العجيب، أي: فلا تغتر أنت بعلمك، ولا أغتر أنا كذلك بعلمي، فإن عِلمنا جميعاً في علم الله لا يساوي قطرة من بحر، وقد قال الله جل وعلا: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا

ألواح السفينة، فنزعه، فقال موسى: قوم حملونا بغير نَوْلٍ عمدت إلى سفينتهم فخرقتَها لتغرقَ أهلها؟[1] قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً - فكانت الأولى من موسى نسياناً -، فانطلقا، فإذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده، فقال موسى: أقتلت نفساً زكيةً بغير نفس؟[2] قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي

﴿قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فلا تبهركم هذه العلوم التي تقدم فيها الغرب، والتي هي في الأصل من علوم آبائنا وأجدادنا، واصلوا فيها المسير، ووقفنا نحن في الطريق ولم نكمل، أخذوا علم آبائنا وأجدادنا فأتقنوه وأكملوا الطريق حتى وصلوا إلى الفضاء، واكتشفوا الاكتشافات والاختراعات، فلا يبهركم هذا العلم، فإنَّ علم الله تبارك وتعالى أجل وأعظم وأكبر، وعلينا كلما رأينا أجهزةً والآت ومبتكرات غريبة وحديثة أن نقول: سبحان الله العظيم، فإذا كان المخلوق قد وصل إلى تلك الإبداعات فكيف بالخالق تبارك وتعالى، فكلما رأينا هذه المخترعات وهذه الإنجازات نزداد إيماناً بالله تبارك وتعالى، ونزداد يقيناً في الله تبارك وتعالى.

(١) وفي سورة الكهف ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]، أي: لقد ارتكبت منكراً عظيماً، وهنا نسي موسى - عليه السلام - ما عاهد عليه الخضر، ووجه إليه لوماً شديداً، لأن فعله هذا قد يفضي إلى إغراق السفينة بمن فيها، وأنه قابل إحسان أصحابها إليهما - عندما أركبوهما معهم - بالإساءة، ويحكم عليه حكماً قاسياً - حسب ما بدا له - بأنه ارتكب ذنباً عظيماً قبل أن يستمع إلى سبب هذا الفعل.

(٢) لما خرج موسى والخضر - عليهما السلام - من البحر، وبينما هما على ساحل البحر، وجدا غلاماً صغيراً، فإذا بالخضر - عليه السلام - يأخذ رأسه ويقتلعه فيقتله، فلما رأى موسى - عليه السلام - هذا المنظر العجيب، ولم يكن هنا ناسياً في هذه المرة، ولكنه ما استطاع أن يسكت عن هذا المنكر - من وجهة نظره - إذ كيف يقتل طفلاً بريئاً لا ذنب له، ولهذا أنكر عليه قائلاً: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ

صبراً؟ – قال ابن عيينة: وهذا أوكد – **فانطلقا، حتى إذا أتيا أهل قريةٍ استطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضَّ فأقامه، قال الخضر: بيده فأقامه**[1]، **فقال له موسى: لو شئت لاتخذت عليه أجراً، قال: هذا فراق بيني وبينك،** قال النبي ﷺ: **يرحم الله موسى، لوددنا لو صبر حتى يقصَّ علينا من أمرهما**»[2].

﴿ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ [الكهف: ٧٤]، (زكية) أي: طاهرةً بريئة، لم ترتكب جريمة تستحق عليها القتل؟ ثم أصدر عليه حكماً حاسماً بأنه ارتكب أمراً خطيراً منكراً (لقد جئت شيئاً نُكراً) هذا منكرٌ عظيمٌ أشد من الأول، ولذا كان الإنكار أشدّ، في المرة الأولى قال: (إمراً) وهنا قال: (نُكْراً)، وقال بعضهم بالعكس، الإمر هو المنكر العظيم الخطير المهول، والنُّكر هو المنكر الكبير لكنه دون الأول، لأن الفعلة الأولى – وهي محاولة إغراق السفينة، بحسب ظاهر الفعل – أشدُّ نكارةً لأن فيها إهلاك للجماعة، بينما الفعلة الثانية – قتل الغلام – إهلاك لفردٍ واحدٍ، ويمكن الجواب عن ذلك بأن خرق السفينة يحتمل الغرق وليس قتلاً يقينياً، بخلاف قتل الغلام فهو قتلٌ عمدٌ يقيناً، فهو أعظمُ نُكْراً . وأجابه الخضر – عليه السلام – : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٥]؛ للتأكيد ولقطع العذر، نبهه الخضر عليه السلام إلى خروجه عما عاهده عليه للمرة الثانية، وأكَّد ذلك بزيادة الجار والمجرور (لك) أي إن هذا هو ما قلته لك لا لغيرك، ولكنك لم تلتزم بما تعهدت لي به في قولك: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ [الكهف: ٦٩]، فأجابه موسى –عليه السلام– :﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴾ [الكهف: ٧٦]، قطع على نفسه الطريق، لو لم يقل هذا لأبصر العجب، ولكنه قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني .

(١) أهل قرية بخلاء رفضوا أن يضيفا موسى والخضر – عليهما السلام– ، ومع ذلك لما وجدا – موسى والخضر – في تلك القرية جدارا يريد أن يسقط ويقع، أقامه الخضر، قيل: إنه هدمه وبناه من جديد، وقيل: إنه أصلحه فقط.

(٢) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

وفي رواية عن كعب ﷺ عن النبي ﷺ: «أنَّ موسى قامَ خطيباً في بني إسرائيل، فسُئِلَ أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه، فقال له: بلى، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك قال: أيْ ربِّ ومن لي به؟ قال: تأخذ حوتاً، فتجعله في مِكْتَل، حيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ، وأخذ حوتاً فجعله في مِكْتَل، ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما، فرقد موسى واضطرب الحوت فخرج، فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً، فأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار مثل الطاق، فقال: هكذا مثل الطاق، فانطلقا يمشيان بقية ليلتهما ويومهما، حتى إذا كان من الغد قال لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، ولم يجد موسى النَّصب حتى جاوز حيث أمره الله، قال له فتاه: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾[1] فكان للحوت سَرَباً ولهما عجباً، قال له موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[2]، رجعا يقصَّان آثارهما، حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مُسَجَّىً بثوب، فسلَّم موسى فرَدَّ عليه، فقال: وأنى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رُشْداً، قال: يا موسى: إني على علمٍ مِن علمِ الله علَّمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علَّمَكَه الله لا أعلمه...» الحديث[3].

---

(١) الكهف: ٦٣.

(٢) الكهف: ٦٤.

(٣) رواه البخاري (٣٤٠١).

ومعنى ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ﴾ أي: هذا هو المطلوب، وهذا هو المراد، أن نعرف المكان الذي نفقد فيه الحوت، فهناك نلتقي بهذا الرجل الذي هو أعلم مني، كما أخبره الله تبارك وتعالى ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[1] أي: رجعا لآثار أقدامهما يقصونها قصصاً، أي: يتتبعونها تتبعا حتى يصلوا إلى الصخرة، فلما وصلا إلى الصخرة وجدا الخضر - عليه السلام - .

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[2] وهذا العبد هو الخضر عليه السلام، وسُمِّي الخضر بهذا الاسم- كما جاء في صحيح البخاري - لأنه جلس على أرض يابسة لا نبات فيها، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء[3].

والخضر– عليه السلام – قيل: إنه نبي، وقيل: إنه ملك، والصحيح من أقوال أهل العلم أنه رجلٌ صالحٌ، والصحيح أيضاً أنه قد مات كما مات غيره ممن هم خيرٌ منه من الأنبياء والمرسلين، ومنهم محمد ﷺ، ومن قبله سائر الأنبياء والمرسلين، وغيرهم من سائر البشر.

---

(١) الكهف: ٦٤.

(٢) الكهف: ٦٥ .

(٣) روى البخاري (٣٤٠٢) عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إنما سُمِّي الخضر؛ أنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء» ومعنى (فروة): قشرة وجه الأرض، و(بيضاء) أي: يابسة ليس فيها نبت، و(خضراء): لما نبت فيها من عشب أخضر.

وتأمَّل قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ فمقام العبودية مقام رفيع وعالٍ، فإذا وصفك الله بالعبودية فهذا مقام سامٍ ورفيع عند الله ﷻ، كما قال سبحانه وتعالى في حق نبينا محمد ﷺ : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾[1].

وقوله ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾: اختلف في الرحمة التي آتاه الله إياها، فقيل: هي الوحي والنبوة، وقيل: الرزق الحلال، وقيل: العزلة عن الناس وعدم الاحتياج إليهم .

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[2]: العلم اللَّدُنِّي هو علم الغيب الذي يطلع الله عليه من شاء من عباده، أي: أن الله ﷻ علَّمه علماً من عنده سبحانه وتعالى، وعلم الغيب خاصٌ بالله تبارك وتعالى، ولكنه قد يعطي شيئاً من علم الغيب للمكرمين من خلقه ومن عباده كرامة لهم، كما حصل ذلك لنبينا محمد ﷺ في مواطن عديدة، وكما حصل مع الخضر – عليه السلام – فيما قصه الله علينا عنه في سورة الكهف.

وتأمَّل قولَ نبيِّ الله موسى: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾[3] (لا أبرح) أي: لا أزال أسير حتى أصل إلى هذا المكان الذي وصفه الله ﷻ لي، إصرارٌ على أن يُحقِّق ما أمره الله تبارك وتعالى به، وما دله الله ﷻ عليه، فهل

---

(١) الإسراء: ١ .

(٢) الكهف: ٦٥ .

(٣) الكهف: ٦٠ .

يا ترى نحن إذا دلَّنا الله ﷻ على ما هو أيسر من هذا من الطاعات والعبادات، نكون حريصين على تنفيذه وتطبيقه وتحقيقه، قلَّ مِنَّا مَن يكون كذلك، قلَّ مِنَّا من يحرص على أداء الصلوات الخمس في أوقاتها مع الجماعة، وقلَّ مِنَّا من يحرص على أداء الزكاة في وقتها، وهكذا سائر العبادات، قلَّ مِنَّا من يحرص على أدائها على الوجه الأكمل الذي يحبه الله ويرضاه.

وقد ذكر النبيُّ ﷺ أنَّ الحريصَ على طاعة الله تعالى والمجتهد في الابتعاد عن معصية الله تعالى، يكون في ظل عرش الله يوم القيامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**سبعةٌ يُظلِّهم الله في ظِلِّه، يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّه: إمامٌ عادلٌ، وشابٌ نشأَ في عبادة ربه، ورجلٌ قلبه مُعلَّقٌ في المساجد، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجلٌ طلبته امرأة ذاتُ منصبٍ وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذَكَرَ الله خالياً ففاضتْ عيناه**»[1].

و﴿ **مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ** ﴾: موضع التقائهما، ولعل المقصود بهما التقاء خليج العقبة بخليج السويس، أو التقاءُ أحد فروع النيل القديمة بالبحر الأبيض المتوسط، وتلك المنطقة شهدت أحداث بني إسرائيل وموسى عليه السلام مع قومه .

و﴿ **حُقُبًا** ﴾: الحقب الدهر، ومقداره ثمانون سنة - كما قيل- والمعنى: لا أزال أمضي في طريقي ورحلتي للوصول للخضر لأتعلم منه، مهما أمضيت من الزمان في ذلك.

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١) .

وتأمل قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾[1] تواضعٌ وأدبٌ جمٌّ من نبي الله موسى مع الخضر، على الرغم من أن موسى رسول من أولي العزم من الرسل، وهو قطعاً أفضل من الخضر، لكنه تواضع؛ وجاء متعلماً من الخضر بعض ما علمه الله إياه، ونأخذ منه الدرس أن من تعلم من إنسان ينبغي أن يتواضع له، ينبغي للطلاب أن يتواضعوا لمن يتعلمون منه، حتى يستفيدوا ويتعلموا أكثر وأكثر، أما إن تكبَّر على معلمه، واغتر بنفسه فلن يستفيد من هذا المعلم شيئاً .

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾[2] هذا من كلام الخضر لموسى، أي: إنك لن تستطيع ولا يحق لك أن تصبر على مالم تحط به خبراً، فلا يحقُّ لك أن ترى منكراً ولا تنكره، قال القرطبي : (أي: إنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي، لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه، ولا طريق الصواب ... والأنبياء لا يقرون على منكر، لا يجوز لهم التقرير، أي: لا يسعك السكوت جريا على عادتك وحكمك)[3].

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾[4] هذا طالب العلم الحريص

---

(١) الكهف: ٦٦ .

(٢) الكهف: ٦٨.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١١/ ١٧).

(٤) الكهف: ٦٩ .

على العلم المتواضع مع معلمه، الصابر على التعلُّم ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [1] أي: لا تسألني حتى أذكر لك الحكمة منه والعبرة والعظة، فلا تستعجل وتسبقني بالسؤال عن ذلك، فأخذ منه الشَّرْط والوعد .

وبعد أن حصلت هذه القصص الثلاث الغريبة؛ خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار لمن لم يضيفوهم، وكان اعتراض نبي الله موسى في المرة الأولى على خرق السفينة نسياناً منه، وفي المرة الثانية عند قتل الغلام اشتدَّ اعتراضه ونكيره على الخضر، ثم أدرك خطأه، ووعد بتحمل تبعة اعتراضه عليه مرة أخرى فقال للخضر عليه السلام: إذا اعترضت عليك في أمر آخر فإن لك أن تفارقني ولا لوم عليك في ذلك، بل لك العذر كل العذر في ألا تصاحبني، وقبل الخضر عليه السلام اعتذاره ومضيا في طريقهما، فلما كانت المرة الثالثة واعترض على إقامة الخضر الجدار لأهل القرية البخلاء الذين لم يضيفوهم، مقترحاً عليه أن يأخذ منهم أجراً ؛ عندها قرر الخضر فراقه مبيناً له وجه الحقيقة التي غابت عنه في تلك القصص الثلاث الغريبة.

﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ

---

(١) الكهف: ٧٠.

يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[1] .

فالسفينة كانت لمساكين يعملون في البحر، والمساكين هنا : جمع مسكين؛ وهو الضعيف العاجز، أي كانت لضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة، وكان وراءهم مَلِكٌ ظالمٌ طاغيةٌ يأخذ كلَّ سفينة صالحة ليس فيها عيب ظلماً وعدواناً، فإن كان فيها عيبٌ تركها، فأراد الخضر– عليه السلام – أن يجعل فيها عيباً بخرقه إياها، لئلا يستولي عليها الملك الظالم، فكان خرقه للسفينة سبباً لحفظها لأصحابها المساكين.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾[2] : الوراء: اسم لما يتوارى عن العين، سواء كان خلفك أو أمامك، فهو من أسماء الأضداد، والمراد به هنا المعنى الثاني، والمعنى: وكان أمامهم أعوان ملك ظالم يأخذون له كل سفينة صالحة من أصحابها غصباً وقهراً، وذلك إما على سبيل المصادرة والاستيلاء التام، وإما على سبيل التسخير والاستغلال دون أجر، ثم يردونها لذويها، واستعمال الوراء بمعنى الأمام شائع في اللغة .

وأسند الخضر الإرادة إلى نفسه بقوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾[3] لأن عيبه لها إفساد في الظاهر، فكان من الأدب أن لا ينسبه إلى الله، فلهذا لم يقل: (فأراد

---

(١) الكهف: ٧٨ – ٨٢ .

(٢) الكهف: ٧٩ .

(٣) الكهف: ٧٩ .

ربك)، ومثله ما سيأتي في قتل الغلام: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾[1] أي: فأردت بقتلي إياه أن يبدلهما ...الخ.

وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشي الخضر- عليه السلام؛ بناء على العلم الذي علمه ربه إياه - أن يرهق والديه طغياناً وكُفْراً؛ أي: يغمرهما بمجاوزته لحدود الله تعالى، وكفره به، وفسر بغض العلماء إرهاقه لهما بالطغيان والكفر: بأن يحملهما حبه - لو بقي حياً - على متابعته على كفره فيكون وجوده سبب هلاكهما وعذابهما.

ولكن الخوف من وقوع ذلك في المستقبل لا يبرر قتله للغلام ، فقد لا يقع، فلهذا فسَّر بعض شراح البخاري الخشية هنا بالعلم، أي فعلمنا من الله تعالى أنه لو بلغ لدعا أبويه إلى الكفر فيجيبانه، ويدخلان معه في دينه لفرط حبهما له، أو علمنا أنه لو بلغ لأرهقهما طغياناً عليهما وكفراً بنعمتهما، بسبب عقوقه وسوء صنيعه، فيلحقهما من ذلك شر وبلاء، فكان قتله فيه فكاكٌ لوالديه الصالحين من ذلك كله، فأراد الخضر بقتله أن يبدلهما ربهما خيراً منه ﴿زَكَوٰةً﴾ أي: طُهراً في الدين والأخلاق ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾[2] أي: وأقرب رحمةً منه بهما، يروى عن ابن عباس أنهما أُبدلا جارية ولدت نبياً[3].

---

(١) الكهف: ٨١ .

(٢) الكهف: ٨١ .

(٣) انظر: «التفسير الوسيط للقرآن الكريم» (٦/ ٩١٤) .

فأصبح قتل الغلام الذي ظاهره شرٌ ومنكرٌ؛ لطفٌ وخيرٌ ورحمةٌ بهذين الوالدين الصالحين، ولذا ثبت عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ يقول: «**عجبت للمؤمن، إنَّ الله لم يقض قضاء إلا كان خيراً له**»[1].

قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإنَّ قضاءَ اللهِ للمؤمن فيما يكره خيرٌ له من قضائه فيما يحب[2].

وقوله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ** ﴾[3] ؛ قال الحافظ ابن كثير: (ومعنى الآية: أن هذا الجدار إنما أصلحه لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما.

قال عكرمة، وقتادة، وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما. وهذا ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله.

وقال العوفي عن ابن عباس: كان تحته كنز علم. وكذا قال سعيد بن جبير، وقال مجاهد: صحف فيها علم، وقد ورد في حديث مرفوع ما يقوي ذلك) [4].

---

(١) رواه أحمد (١٢١٦٠) وقال محققو المسند – ط الرسالة – (١٩/ ٢٠٣) : حديث صحيح.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٨٥) .

(٣) الكهف : ٨٢ .

(٤) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٨٦) .

ثم روى ابن كثير عن الحسن البصري، أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾[1] قال: (لوحٌ من ذهبٍ مكتوبٌ فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن؟ وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا الله، محمد رسول الله)[2].

ثم قال الحافظ ابن كثير بعد أن أورد ذلك الأثر وغيره مما يدل على أن الكنز علمٌ: (وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة... لا ينافي قول عكرمة: أنه كان مالاً؛ لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب، وفيه مالٌ جزيل، أكثر ما زادوا أنه كان مودعاً فيه علم، وهو حكم ومواعظ، والله أعلم)[3].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾[4]: (فيه دليل على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقرَّ عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت السنة به. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: حُفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاح)[5].

---

(١) الكهف: ٨٢.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٨٦).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٨٦).

(٤) الكهف: ٨٢.

(٥) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٨٦، ١٨٧).

وقيل: إن هذا الأب الصالح كان الأب السابع، ليس الأب المباشر، ولا الذي قبله، ولا الذي قبله، وإنما الأب السابع[1]، يحفظ الله تبارك وتعالى الأبناء بصلاح آبائهم وأجدادهم فهلا حفظنا آبائنا وذرياتنا بصلاحنا واستقامتنا.

وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾[2] هاهنا أسند الإرادة إلى الله تعالى؛ لأنه إنعام محض، فمناسب إسناده إليه تعالى بخلاف ما مر في السفينة والغلام فقد كان إفساداً في الظاهر، فلهذا أسنده الخضر إلى نفسه .

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾أي: هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىٓ﴾ لكني أمرت به ووقفت عليه، فبين الخضر – عليه السلام – أنه كان يتلقى الأمر فيما يفعله من الله تعالى، وليس الذي فعلته من الأمور التي شاهدتها يا موسى ناشئاً عن اجتهادي ورأيي، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر– عليه السلام–، مع ما تقدم من قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[3].

وقال آخرون: كان رسولاً، وقيل: بل كان مَلِكاً[4].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٨٧) .

(٢) الكهف : ٨٢ .

(٣) الكهف: ٦٥.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٨٧) .

﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾[1] أي: ذلك الذي شرحته لك من أسرار تلك الأحداث، هو مآل وعاقبة الأمور التي لم تستطع الصبر عليها.

نسأل الله ﷻ أن يوفقنا ويعيننا على حسن عبادته وطاعته إنه ولي ذلك والقادر عليه .

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه .



(١) الكهف : ٨٢ .



أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، نواصل اليوم حديثنا في تأملات سورة الكهف ووصل بنا الحديث عند القصة الأخيرة في هذه السورة، وهي قصة ذي القرنين، وهذه السورة كما ذكرنا احتوت على أربعة قصص: قصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وقصة ذي القرنين.

فكأن قصة الفتية فيها دروس وعبر للفتيان والفتيات، وقصة أصحاب الجنتين فيها دروس وعبر لأصحاب الأموال والتجار، وقصة موسى والخضر - عليهما السلام- فيها دروس وعبر للعلماء والحكماء، وهذه القصة الأخيرة قصة ذي القرنين فيها دروس وعبر للحكام والأمراء .

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾[1].

ذكر الله قبل هذه القصة ما حدث بين موسى والخضر، وعقبها بذكر قصة ذي القرنين؛ لتكون القصتان آية على نبوته ﷺ، فإنَّ القصتين لا يعلمهما سوى أهل الكتاب، في حين أنه ﷺ لا سبيل له إلى علمهما إلا بقراءة كتبهم، أو بتعلمهما منهم،

---

(١) الكهف: ٨٣ – ٨٤.

ولا سبيل له إلى قراءتها، لأن النبي ﷺ أمي، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1]، كما أنه لا سبيل له إلى تعلمها منهم، لأنهم لا يوجدون بمكة، ولم يكن له اتصال بهم، ولهذا كانوا يسألونه عن تلك الغيبيات، إما بتحريض قريش على سؤاله، وإما بسؤالهم إياه بأنفسهم، وأكثر الآثار تدل على أن السؤال حصل منهم قبل نزول هذه الآيات، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ﴾: السائلون قريش بتلقين اليهود، أو اليهود أنفسهم، حيث وجهوا إلى النبي ﷺ ثلاثة أسئلة، وكان من ضمنها سؤال عن رجل طواف في الأرض ما كان أمره[2]، وهو الموصوف بـ ﴿ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾: وهي صفة لمَلِك

---

(١) العنكبوت: ٤٨.

(٢) أورد الحافظ ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالت لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإنْ أخبركم بهنَّ، فهو نبيٌ مُرْسَلٌ، وإن لم يفعل فالرجل مُتقوِّل فروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طوَّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا؛ فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم

مؤمن صالح عمَّ ملكه معظم أنحاء الارض آنذاك، وسيأتي بيان السبب في وصفه بذي القرنين، ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [1] و(ذِكْراً) أي: نبأً مذكوراً، وقيل: (ذِكْراً) أي: تذكيراً، والمعنى: أن الله ﷻ سيتلو علينا من قصته ما فيه العبرة والعظة والتذكير.

وعادة القرآن أنه لا يتعمق في التفاصيل، فلا يذكر تفاصيل الأسماء ولا البلدان ولا الأماكن، إذ ليس في ذلك عبرة ولا عظة، ولا يهتم بمثل تلك التفاصيل إلا أهل التاريخ والقصص، أما القرآن فيذكر من القصة مواضع العبرة والعظة، لنعتبر بها ونتعظ، ونأخذ منها دروساً نستنير بها في حياتنا.

وذو القرنين ملك صالح مكن الله له في المشارق والمغارب، وقد اختُلف في شخصه، فقيل: هو الإسكندر المقدوني- وهو رأي معظم المفسرين-.

غداً بما سألتم عنه»، ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل- عليه السلام - حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها، لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مُكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل- عليه السلام- من عند الله، عز وجل، بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، وقول الله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٣٦).

(١) الكهف: ٨٣.

قال النيسابوري: (أصح الأقوال أن ذا القرنين هو الإسكندر بن فيلقوس الرومي الذي ملك الدنيا بأسرها، إذ لو كان غيره لانتشر خبره ولم يخف مكانه عادة)[1].

وقال الفخر الرازي: (فهذا الإنسان المسمى بذي القرنين في القرآن قد دل القرآن على أن مُلْكَه بلغ أقصى المغرب والمشرق، وهذا هو تمام القدر المعمور من الأرض، ومثل هذا الملك البسيط لا شك أنه على خلاف العادات، وما كان كذلك وجب أن يبقى ذكره مخلداً على وجه الدهر، وأن لا يبقى مخفيا مستترا، والملك الذي اشتهر في كتب التواريخ أنه بلغ ملكه إلى هذا الحد ليس إلا الإسكندر)[2].

وقد كان الإسكندر موجوداً قبل مبعث عيسى- عليه السلام - بثلثمائة سنة كما نقله الآلوسي عن بعض المؤرخين.

وهناك من قال: إنه رجل يماني ملك الأرض كلها؛ لأن الملقبين بكلمة (ذي) كانوا من اليمن، كذي المنار، وذي نواس، وذي يزن، وهناك من يرى أن ذا القرنين هو غورش الفارسي، ويسميه اليهود (كورش) ويسميه اليونانيون (سانرس) وإطلاق ذي القرنين عليه عند أصحاب هذا الرأي ناشئ من رؤيا رآها

---

(١) «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» للنيسابوري (٤/ ٤٥٧).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢١/ ٤٩٣).

النبي دانيال في منامه، خلاصتها أن كبشاً كان واقفاً على شاطئ النهر له قرنان، وهو ينطح بهما شرقاً وغرباً وجنوباً، ولا قبل لحيوان بالوقوف أمامه.

وتسميته ذا القرنين على أنه الإسكندر المقدوني أو أبو كرب اليمنى، لأنه بلغ ناصيتي مشرق الشمس ومغربها، مأخوذ من قرن الشمس بمعنى ناحيتها، وقيل: كانت له ضفيرتان من شعر فنسب إليهما - ذكره الثعلبي وغيره - والضفائر قرون الرأس عند العرب، والوجه الأول في علة التسمية أولى بالقبول، فإن وصف ذي القرنين ذكر على أنه علامة مميزة لهذا الفاتح العظيم، وكونه ذا ضفيرتين من الشعر لا يصلح أن يكون علامة مميزة، لأن إرسال الشعر وتضفيره من العادات القديمة للرجال والنساء جميعاً.

هذه أظهر الأقوال في شخصية (ذي القرنين) وأياً كانت شخصيته، فقد ذكرت قصته للوعظ والإرشاد، فليكن هو الإسكندر المقدوني، أو رجلاً حميرياً من اليمن، أو ملكاً فارسياً، فالقرآن لم يأتنا ليعلمنا تاريخ اليونان، أو تاريخ الحميريين، أو الفارسيين، فإنَّ القرآن أعظم من ذلك كله، ولكنهم لما سألوه ﷺ عن ذي القرنين، أجابهم بما يجمع بين إجمال المطلوب لهم، والدلالة على صدق نبوته ﷺ والعبرة، حيث أخبرهم بما لا يعلمه سوى أهل الكتاب، وبين أن الملك الصالح العالم يؤيده الله تعالى ويمكِّن له في أرضه[1].

---

(١) انظر: «التفسير الوسيط للقرآن الكريم» (٦/ ٩١٦، ٩١٧).

والمعنى الإجمالي: ويسألك السائلون – من قريش بتحريض اليهود، أو اليهود أنفسهم – عن صاحب القرنين الذي جاب الأرض كلها، قل يا أيها الرسول مجيباً لهم: سأقرأ عليكم من قصته نبأ مذكوراً، على سبيل التلاوة من وحي الله تعالى الذي أوحاه إليَّ جل وعلا.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾[1] أي: جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض، وأعطيناه من أجل كل شيء أراده سبباً ووسيلة توصله إليه، فلا يعوقه عن مراده عائق، ومن هذه الأسباب: سعة العلم، وحسن التدبير، والحكمة في التصرف، وتدريب الجنود، واختيار القواد، والعتاد الحربى.

قال ابن كثير – رحمه الله – : (وقوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أعطيناه ملكاً عظيماً متمكناً، فيه له من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود، وآلات الحرب والحصارات؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب والعجم؛ ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: يعني علماً.

وقال قتادة أيضا في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ قال: منـازل الأرض

---

(١) الكهف: ٨٤.

وأعلامها[1].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾[2] قال: تعليم الألسنة، كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم)[3].

قال مجاهد: (ملك الأرض أربعة، مؤمنان وكافران فأما المؤمنان فسليمان، وذو القرنين، وأما الكافران فنمرود، وبختنصر)[4].

فذو القرنين يسَّر الله له الأسباب، أي: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والبلاد والأراضي وكسر الأعداء، وإذلال أهل الشرك، فقد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سبباً.

وأراد ذو القرنين أن يتوجَّه إلى ناحية مغرب الشمس ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾[5] أتْبع واتَّبع بمعنى واحد، أي اتّبع طريقاً وأسلوباً من شأنه إنجاح غزوه للأقطار الغربية، وقد أشارت الآية الكريمة ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾[6] إلى أنَّ معالي الأمور لا تنال إلا باستعمال الأسباب الموصلة إليها، وأن المجد لا يناله القاعدون الخاملون.

---

(١) أي: أعطى الله لذي القرنين – من جملة ما أعطاه – علم الطرق والمسالك، علمه الله ﷻ هذا العلم، فهو يصل إلى المشارق والمغارب، وإلى أي مكان في الدنيا بكل يسر وسهوله.

(٢) الكهف: ٨٤.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٨٩، ١٩٠).

(٤) «تفسير البغوي» (١/ ٣١٥).

(٥) الكهف: ٨٥.

(٦) الكهف: ٨٥.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٖ حَمِئَةٖ ﴾[1] أي: اتبع الطريق والسبب الموصل إلى مقصده، وسار في اتجاه الغرب حتى وصل إلى أقصى الأرض، فبلغ في فتوحاته منتهى الأرض من جهة مغرب الشمس، ووقف عند حافة المحيط، وجد الشمس - كما أدركها بصره - تغرب في عين ذات حمأة، والشمس أبعد من ذلك بكثير ولكن الناظر إذا نظر في البحر فكأنه يرى الشمس تغرب في ذلك البحر، والحمأة الطين الأسود، مأخوذة من حمئت البئر إذا كثرت حمأتها - أي طينها الأسود -.

﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ ﴾[2]أي: أمة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم.

وقوله: ﴿ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴾[3]، الله تعالى مكَّنه منهم وحكَّمه فيهم، وأظفره بهم، وخيَّره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء مَنَّ أو فدى؛ اختباراً من الله تبارك وتعالى لهذا الملك، فما كان منه إلا أن ظهر عدله وإيمانه ورحمته فيما أبداه في قوله: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءَ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴾[4]،

---

(١) الكهف: ٨٦.

(٢) الكهف: ٨٦.

(٣) الكهف: ٨٦.

(٤) الكهف: ٨٧، ٨٨ .

فقوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: من استمر على كفره وشركه بربه، ولم ينتقل منه إلى التوحيد والإيمان ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ قال قتادة: بالقتل ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾[1] أي: شديداً أليماً، وفيه إثبات المعاد والجزاء؛ فبعد أن يقتل في الدنيا، يجد في الآخرة العذاب الأليم في النار، جزاء كفره وشركه .

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: تابعنا على ما ندعوه إليه من الإيمان بالله وعبادته وحده لا شريك له ﴿فَلَهُۥ جَزَآءَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: في الدار الآخرة عند الله عز وجل ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾[2] قال مجاهد: معروفاً، أي: ستكون معاملته من قبلنا معاملة اليسر والإكرام والاحترام والتقدير، جزاء إيمانه بالله تبارك وتعالى وعمله الصالح.

وهذا من عدل ذي القرنين وإنصافه، فهو لم يسوِّ بين الظالم المفسد والعادل المصلح، وإنما فرَّق بينهم في المعاملة، فالعقوبة أوقعها على المفسدين المجرمين الظالمين، والمكافأة والجزاء الحسن والمعاملة بالحسنى للمحسنين والمصلحين، وهذا فيه درس، وهو: أن الناس ليسوا سواسية، ولا يصح أن يُعامل الصالح كما يُعامل الطالح.

---

(١) الكهف: ٨٧.

(٢) الكهف: ٨٨ .

ثم قال ﷻ: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾[1].

قال الحافظ ابن كثير– رحمه الله –: (يقول: ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مر بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم، واستباح أموالهم وأمتعتهم، واستخدم من كل أمة ما يستعين به مع جيوشه على أهل الإقليم المتاخم لهم، وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمائة سنة يجوب الأرض طولها والعرض حتى بلغ المشارق والمغارب، ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي: أمة ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي: ليس لهم بناء يكنهم، ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس)[2].

وسئل الحسن – رحمه الله – عن قوله تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾[3] فقال: إن أرضهم لا تحمل البناء فإذا طلعت الشمس تغوروا في المياه، فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم. وقال قتادة: ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئاً، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا

---

(١) الكهف: ٨٩ – ٩١.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٩٣، ١٩٤).

(٣) الكهف: ٩٠.

إلى حروثهم ومعايشهم[1].

أي: إنهم كانوا يتقون الشمس بالسراديب في الأرض، فيحفرون في الأرض حفراً، ويدخلون فيها تجنباً لحرارة الشمس، أو كانوا ينزلون في الماء، فإذا غربت الشمس خرجوا إلى معاشهم، وذُكر أنهم كانوا عراة، أي أنهم في حياة بدائية تماماً.

(وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ قال مجاهد، والسدي: علماً، أي: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[2])[3].

فالله ﷻ أحاط علماً بما لدى ذي القرنين من القدرات والإمكانات والجنود والوسائل التي حقق بها ما يريد، حتى وصل أطراف الأرض مغرباً ومشرقاً، كما هو سبحانه أعلم بأحوال أهل هذه البلاد في المشرق وفي المغرب.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٩٤).

(٢) آل عمران: ٥ .

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٩٤).

وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾[1].

قال الإمام ابن كثير: (يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي: ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ وهما جبلان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيهم فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم، عليه السلام، كما ثبت في الصحيحين: «**إنَّ الله تعالى يقول: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: ابعث بعث النار. فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة؟ فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمتين، ما كانتا في شيء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج**»[2])[3].

وعن عبد الله بن عمروٍ رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، وإنهم لو أُرسلوا إلى الناس لأفسدوا عليهم معايشهم، ولن يموت منهم أحدٌ إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً**»[4].

---

(١) الكهف: ٩٢ – ٩٨ .

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٠)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٩٥).

(٤) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨ / ٦) : رواه الطبراني في «الكبير»، و«الأوسط»، ورجاله

لما أَتمَّ ذو القرنين رحلته إلى المشرق، وأخضع أهله لحكمه، اتخذ طريقاً ثالثاً ليخضع لسلطانه قوما آخرين لم يدينوا له بعد، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾[1] أي: حتى إذا وصل في سيره إلى منطقة تقع بين جبلين معينين، وجد قريبًا منهما قوماً لا يفهمون ما يقال لهم منه، أو من أَتباعه إلا بصعوبة ومشقة؛ بسبب بعدهم عن الناس وعدم مخالطتهم لهم لمكانهم البعيد،

(قرأ حمزة والكسائي: ﴿يُفْقِهون﴾ بضم الياء وكسر القاف، على معنى: لا يُفقِهون غيرهم قولاً، وقرأ الآخرون: بفتح الياء والقاف أي لا يفقهون كلام غيرهم، قال ابن عباس: لا يفقهون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم)[2].

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾[3] أي: شكا القوم الذين هم دون السّدين حالهم لذى القرنين، لما عَلموه من قوة سلطانه وعظيم همته، وبما سمعوه من أخبار رحلته، فقالوا له: يا صاحب القرنين، إن قبيلتي يأجوج ومأجوج المقيمتين خلف السّدين، مفسدون في الأرض التي نحن فيها، كما أنهم مفسدون في غيرها، ونحن لا نقدر على دفعهم

ثقات. ا.هـ.

(١) الكهف: ٩٣.

(٢) تفسير البغوي (٥/ ٢٠١).

(٣) الكهف: ٩٤ .

عن بلادنا، فهل نجعل لك عطاءً ومالاً على أن تجعل بيننا وبين هؤلاء المفسدين حاجزاً بين هذين الجبلين يمنعهم من العودة إلى أرضنا والإفساد فيها.

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾[1] قال ذو القرنين ردّاً على ما عرضوه من العطاء في مقابل إقامته السدّ بينهم وبين يأجوج ومأجوج: ما مكنني فيه ربي من الملك والمال والعلم وسائر الأسباب خيرٌ مما تعرضونه عليَّ من العطاء، فلا حاجة لي بأموالكم، لكن أعينوني على بناء السد الذي تريدونه بما أَقوى به على تحقيقه من العمال وآلات البناء والوقود وقطع الحديد والنحاس، وغير ذلك مما نحتاجه حتى يساوي الجبلين، ويكون شديد القوة بحيث لا يقدرون على صعوده ولا على اختراقه، فإن فعلتم أجعل بينكم وبينهم (**ردماً**) أي: حاجزاً حصيناً منيعاً، فالردم في اللغة: أقوى من مطلق السدّ، مأخوذ من قولهم سحابٌ مُرَدَّمٌ، أي: متكاثفٌ بعضه فوق بعض.

وهكذا ينبغي على كل إنسان قادر أن ينصر المظلوم ويقف بجوار المنكوب، وأن يستجيب لمن يستغيث به.

و(**يأجوج ومأجوج**): قبيلتان من البشر، وهما اسمان أَعجميان، أَو عربيان مأخوذان من أَجَّ الظليم إِذا أسرع، أو من أجيج النار، وهو ضوؤها وشررها، وهذا المأخذ يشير إِلى شرهم وفسادهم، وأنهم مثل النار، ولا جيرة لهم، كما أن المأخذ الأول يشير إلى سرعتهم في شن الغارات على جيرانهم، والعودة بغنائمهم

---

(١) الكهف: ٩٥ .

إلى حيث يعيشون وراء الجبلين اللذين أقيم السد بينهما، وهذان الجبلان كما يقول بعض الباحثين: (بين سمرقند والهند) وعلى هذا يكون المراد من يأْجوج ومأجوج المغول والتتار، وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالى، وتنتهى غرباً إلى ما يلى بلاد التركستان، وهذه الأُمم عرفت في التاريخ بإغارتها على الأُمم المجاورة من آن لآخر، كما عرف عنهم تجاوز إفسادهم إلى أطراف الأرض، فقد انحدروا من مرتفعات آسيا الوسطى إلى أوروبا وخربوها كما خربوا آسيا الغربية التي بعث فيها الأنبياءُ، وكانوا يحذرون منهم أقوامهم[1].

وقد جاء في وصف (يأجوج ومأجوج) على لسان المصطفى ﷺ أنه قال: «**إنكم تقولون لا عدُوَّ، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً حتى يأتيَ يأجوج ومأجوجُ، عِراضُ الوجوهِ، صغارُ العيونِ، شُهْبَ الشِّعَافِ**» يعني: شُهْبَ الشعور «**من كُل حدبٍ يَنسِلون، كأن وجوههم المجآنُّ المُطْرَقَة**»[2]، فهذه أوصافهم كما ذكرها النبي ﷺ، وهم من أصل الترك كما قال العلماء.

وقوله: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾[3]، هذا شبيه بقول نبي الله سليمان عليه السلام عندما قال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ

---

(١) انظر: «التفسير الوسيط» (٦/ ٩٢٦، ٩٢٧).

(٢) رواه أحمد (٢١٨٢٦) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨ / ٦): رواه أحمد، والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح.

(٣) الكهف: ٩٥.

﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[1]، وقول نوح عليه السلام : ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾[2]، وهكذا قال غيرهما من سائر الأنبياء عليهم السلام، فالأنبياء - وورثة الأنبياء - ليسوا طلاب مال، وإنما طلاب إصلاح وإرشاد وهداية .

ثم قال ذو القرنين لهم - فيما حكاه الله تعالى عنه - : ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾[3] .

جاء في تفسير البغوي – رحمه الله- : (﴿ءَاتُونِى﴾ أعطوني، وقرأ أبو بكر: ﴿ائتوني﴾ أي: جيئوني ﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ أي: قطع الحديد واحدتها زُبْرَةٌ، فآتوه بها وبالحطب وجعل بعضها على بعض، فلم يزل يجعل الحديد على الحطب والحطب على الحديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ أي: سوَّى بين طرفي الجبلين ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾ يعني: في النار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ أي: صار الحديد ناراً ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي:آتوني قِطْراً أفرغ عليه، والإفراغ: الصب، والقِطْر: هو

---

(١) النمل: ٣٦ .

(٢) هود: ٢٩ .

(٣) الكهف: ٩٦ – ٩٨ .

النحاس المذاب، فجعلت النار تأكل الحطب ويصير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس[1]، قال قتادة: هو كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء. وفي القصة: أن عرضه كان خمسين ذراعاً وارتفاعه مائتي ذراع وطوله فرسخ ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أن يعلوه من فوقه لطوله وملاسته ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ من أسفله لشدَّته ولصلابته[2] ﴿قَالَ﴾ يعني: ذا القرنين ﴿هَذَا﴾ أي: السدّ ﴿رَحْمَةٌ﴾ أي: نعمة ﴿مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ قيل: يوم القيامة، وقيل: وقت خروجهم ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ قرأ أهل الكوفة ﴿دَكَّاءَ﴾ بالمد والهمز، أي: أرضاً ملساء، وقرأ الآخرون بلا مد أي: جعله مدكوكاً مستوياً مع وجه الأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾)[3].

---

(١) فتماسك البنيان أشد التماسك بخلط الحديد مع النحاس المذاب، وهذا معروف الآن في صناعات الحديد، إذا أضيف له النحاس يصبح أقوى من الحديد بكثير وهذا من العلم الذي علمه الله تبارك وتعالى لذي القرنين.

(٢) وقال سبحانه في الأولى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ بالتخفيف؛ لأن الصعود أسهل من النقب، ولهذا قال في الثانية - النقب - : ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾، كما قال ﷻ في قصة الخضر التي سبق بيانها من قبل: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨] قال (تستطع) لأنه ما كان يعرف الحكمة من تلك الأمور التي فعلها الخضر، كان فهمها ومعرفتها شاقاً وصعباً عليه ولهذا قال له (تستطع)، لكن لما فهمها ووضحها له الخضر وصارت معلومة لديه، عبر بقوله : (تسطع) فقال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]، لأنها أصبحت مقنعة ومفهومة عند موسى عليه السلام.

(٣) «تفسير البغوي» (٥/ ٢٠٥).

فهذا السدُّ العظيم الضخم الهائل – وهكذا كلُّ بناء – سَيُدَكُّ إذا أراد الله دكَّه، وجاء موعد تدميره، وجاء يوم القيامة، وإذا كانت الجبال الرواسي تندك يوم القيامة؛ كما قال الله جل وعلا: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[1] فكيف ما بناه الإنسان؟!.

وقد اجتهد بعض العلماء فقالوا: إن يأجوج ومأجوج قد خرجوا في الماضي، عندما غزا التتار والمغول بلاد العالم حتى أتوا إلى مقر الخلافة العباسية فقتلوا خليفة المسلمين، وقتلوا ببغداد مقتلة عظيمة من المسلمين، ثم ساروا إلى الشام وفعلوا مثلما فعلوا في بغداد من القتل والتدمير، ولم يصدهم إلا الظاهر بيبرس، والمظفر قطز في معركة عين جالوت الشهيرة، وكانت في شهر رمضان المبارك .

والبعض في زماننا يقول: هل يعقل أن يأجوج ومأجوج موجودون الآن وراء السد ولم تكتشفهم الأقمار الصناعية، ولا أجهزة الرصد الحديثة، فنقول: الله تبارك وتعالى على كل شيء قدير، فهو قادر سبحانه أن يخفي عنا مكانهم وأن يحول بيننا وبينهم، كما هو الحال في شأن الجن والملائكة وسائر الغيبيات التي حجب الله علمها عنَّا، فهل يستطيعون رؤيتها أو الاطلاع على شيء منها ؟!.

وهل اكتشف البشر كل شيء على هذه الأرض، وفي هذا الكون الفسيح، إنهم لايزالون يكتشفون كل يوم أشياء جديدة في الأرض وفي السماء، ويرون من آيات

---

(١) طه: ١٠٥ – ١٠٧.

الله تبارك وتعالى التي لم يكن يعرفون عنها شيئاً من قبل، وسيستمرون على ذلك؛ لأن البشر عاجزون عن الإحاطة بكل ما على الأرض، والله تبارك وتعالى وحده هو الذي أحاط بكل شيء علماً، فإن كنَّا مؤمنين حق الإيمان بذلك، تبين لنا أن إخفاء أمر يأجوج ومأجوج عنا ليس بمستغرب ولا مستنكر .

جاء في الحديث الصحيح عن السد قال ﷺ : «**يحفرونه كل يوم**» أي: يأجوج ومأجوج «**حتى إذا كادوا يخرِقونه، قال الذي عليهم:**» وهو زعيمهم «**ارجعوا فستخرقونه غداً**» ولا يقول: إن شاء الله «**فَـيُعِيْدُهُ كأشدِّ ما كان، حتى إذا بَلغَ مُدَّتهم، وأراد الله تبارك وتعالى أن يبعثهم على الناس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غداً إن شاء الله**» يُذَكِّره الله تبارك وتعالى بهذه الكلمة، فلا يخرجون إلا بمشيئة الله، ولا يخرجون إلا بأمر الله، ولا يظهرون إلا في الوقت الذي يريده الحق سبحانه وتعالى «**قال: فيرجعون فيجدونه كهيئته حين تركوه**» كما تركوه في اليوم الذي قبله «**فيخرقونه، فيخرجون على الناس، فيستقون المياه، ويفرُّ الناسُ من أمامهم** ... » الحديث [1] .

وقال الله تبارك وتعالى أيضاً : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [2] .

---

(١) رواه الترمذي (٣١٥٣) في « التفسير» .

(٢) الأنبياء : ٩٦ ـ ٩٧ .

وفي صحيح مسلم من حديث النواس بن سمعان ﷺ أن النبي ﷺ قال: «فبينما هو كذلك إذ أوحى الله تعالى إلى عيسى : إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحدٍ بقتالهم، فحرِّز عبادي إلى الطور . ويبعث الله يأجوجَ ومأجوج وهم من كل حدبٍ ينسلون، فيمُرُّ أوائلهُم على بحيرةِ طبرِيَّةَ فيشربُون ما فيها، ويَمُرُّ آخِرهُم فيقولون : لقد كان بهذه مرةً ماءٌ . ويُحصَرُ نبيُّ الله عيسى وأصحابُهُ» من المؤمنين في الجبل «حتى يكون رأسُ الثورِ لأحدهم» يعني: طعاماً «خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبيُّ الله عيسى وأصحابُهُ» يعني يلجئون إلى الله مما أصابهم من الجوع والحصر، بسبب انتشار يأجوج ومأجوج في الدنيا كلها، فيلجئون إلى الله، فيستجيب الله دعاءَهم «فيرسل الله ﷻ عليهم النَّغَفَ» والنَّغف: دود يكون في أنوف الإبل والأغنام، يرسلها عليهم تبارك وتعالى«في رقابهم، فيصبِحُون فرسَى كموتِ نفسٍ واحدةٍ، ثم يَهبِطُ نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأصحابُه إلى الأرض» ينزلون من جبل الطور «فلا يجدون في الأرض موضع شبرٍ إلا ملأه زهمُهم ونتنهم» ريحهم الخبيثة والعياذ بالله ﷻ «فيرغبُ نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله تبارك وتعالى» مرةً أخرى، أن يكشف عنهم هذا الكرب، وهذا البلاء، فيستجيب الله دعاءَهم «فيرسِلُ اللهُ طيراً كأعناقِ البُختِ، فتحمِلُهُم، فتطرَحُهُم حيث شاء الله تبارك وتعالى»[1].

(١) رواه مسلم (٢٩٣٧) .

وقد سبق أن تحدثنا بالتفصيل عن (يأجوج ومأجوج) في خطبنا عن أشراط الساعة الكبرى[1]، بما يغني عن إعادتها هنا مرة أخرى .

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾[2] : بعد أن حكى القرآن الكريم عن ذي القرنين أَنَّ هذا السدَّ رحمة من ربه، ذكر في هذه الآية ما فعله الله تعالى بيأجوج ومأجوج بعد إقامة السد، وظاهر النظم الكريم أن الضمير في قوله تعالى: ﴿بَعْضَهُمْ﴾ عائد إلى يأجوج ومأجوج، وعليه اقتصر الفخر الرازي، واختاره صاحب البحر. والتَّرْكُ هنا بمعنى الجَعْل، أي: (وجعلنا بعضهم يومئذ يموج في بعض)، والمعنى على هذا: وبعد تمام السد جعلنا يأجوج ومأجوج يموجُ بعضهم في بعض، أي يضطربون اضطراب موج البحر لما مُنِعُوا من الخروج والفساد في الأرض بسبب السدّ، ولا يزالون مائجين مضطربين، حتى ينجز الله وعده الحق، فَيَنْدَكُّ السد ويسوَّى بالأرض، وحينئذ يخرجون مزدحمين في البلاد ويُهلكون الحرث والنسل[3].

---

(١) انظر للمؤلف: «مختارات من علامات الساعة الصغرى والكبرى» (ص ١٣٤ - ١٣٩) .

(٢) الكهف: ٩٩ .

(٣) وقيل: إن الضمير عائد إلى الخلائق من الإنس والجن، وعلى هذا الرأى يكون معنى الآية ما يلي: وجعلنا بعض الخلائق يضطربون اضطراب أمواج البحر، يختلط إنسهم بجنهم من شدة الفزع والهول عند قيام الساعة، روي هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال الآلوسى: ولعل ذلك لعظائم تقع قبل النفخة الأولى. انظر: «التفسير الوسيط» (٦/ ٩٢٩- ٩٣١) .

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ : الصور هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام بأمر الله تعالى، كما ثبت في السنة، وهو بوق عظيم جداً، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه ينظر متى يؤمر**»، قال المسلمون: يا رسول الله، فما نقول؟ قال: «**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا**»[1].

وهناك نفختان في الصور: الأولى: نفخة الصعق، والثانية: نفخة البعث والقيام من القبور، وهما المذكورتان في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[2].

والمراد هنا: النفخة الأُخرى بدليل ما بعدها، والضمير في قوله تعالى: ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾[3] راجع للخلائق كلها، ومنهم يأجوج ومأجوج - أي عقب النفخة الأُخرى في الصور، والقيام من القبور، نجمع الخلائق كلها جمعاً عظيماً هائلاً - أولهم وآخرهم، إنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم بعدما تفرقت أوصالهم، وتمزقت

---

(١) رواه أحمد في المسند (١١٠٣٩) والترمذي (٣٢٤٣) وقال: «حديث حسن»، وقال محققو المسند (١٧/ ٨٩) : حديث صحيح.

(٢) الزمر: ٦٨ .

(٣) الكهف: ٩٩.

أَجسادهم - نجمعهم في صعيد واحد للحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾[2].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه .

(١) الواقعة: ٤٩ - ٥٠ .

(٢) الكهف: ٤٧ .

ختام سورة الكهف

أما بعد فيا أيها الإخوة الكرام الأحبة، ويا أحباب رسول الله ﷺ، فقد وصل بنا المطاف في آخر سورة الكهف، وآخر هذه السورة المباركة هي العشر الآيات التي ورد في فضلها: أن من قرأها عُصم من فتنة الدجال[1].

وهذه العشر الأواخر تبدأ من قوله ﷻ: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾[2] ... إلى آخر الآيات، فنتأمل اليوم هذه الآيات المباركات العظيمة التي من قرأها حفظه الله ﷻ من أعظم فتنة في الحياة الدنيا، وهي فتنة الدجال.

قال تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾[3].

---

(١) فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ حفظ عشر آيات مِنْ أول سورة الكهف عُصم مِنَ الدجال»، وفي روايةٍ: «مِنْ آخر سورة الكهف» رواه مسلم (٨٠٩)، وأبو داود (٤٣٢٣)، والتِّرمذي (٢٨٨٨).

(٢) الكهف: ١٠٠ .

(٣) الكهف: ١٠٠ - ١٠٢ .

هذا إخبار منه تبارك وتعالى، عما يفعله بالكفار يوم يجمع الخلائق للحساب والجزاء، ومعنى قوله: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾[1] أي: أبرزها الله ﷻ وأظهرها لهم قبل أن يدخلوا فيها، بحيث يرونها، ويسمعون لها تغيُّظاً وزفيراً، ويُبصرون ما أعدَّ لهم فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أَبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم[2]، وليعلموا أَنهم مواقعوها لا يجدون عنها مصرفاً.

وورد في ذلك حديث رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»[3].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[4] هذا بيان منه سبحانه لبعض أوصاف الكافرين الذين استحقوا بسببها هذا العذاب والنكال، ومنها أن: أعينهم كانت - في الدنيا - في غشاوة محيطة بها، فتغافلوا وتعاموا عن النظر في آيات الله الداعية إلى ذكره وطاعته، فالكفار لهم أعين لكنهم لا يبصرون بها، لأنها في غطاء وغشاوة وعماية عن ذكر الله وعن آياته،

---

(١) الكهف: ١٠٠ .

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٠١) .

(٣) رواه مسلم (٢٨٤٢).

(٤) الكهف: ١٠١ .

سواء كانت الآيات المكتوبة في القرآن، أو الآيات المسطورة في الكون، تلك الآيات الواضحة الدالة على وجود الله سبحانه وتعالى.

قال الإمام ابن كثير في تفسير الآية السابقة: (تعاموا وتغافلوا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[1] وقال هاهنا: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[2] أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه)[3].

وبالرغم من أن للكفار سمع، لكنهم لا يسمعون به سمع إجابة وطاعة، يسمعون الآيات تتلى آناء الليل وأطراف النهار، ولكنهم لا يعقلون، ولا يستجيبون لما تأمرهم به هذه الآيات من الإيمان والتوحيد لربهم وخالقهم، ومن كان كذلك كان شراً من البهائم.

وقد شبَّه الله جل وعلا صنفاً من اليهود ممن لم يعملوا بما تعلموه من التوراة بأنهم كالحمار يحمل أسفاراً، قال جل وعلا: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[4].

---

(١) الزخرف: ٣٦.

(٢) الكهف: ١٠١ .

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٠١) .

(٤) الجمعة: ٥.

وقال جل وعلا فيمن لا يستعمل وسائل الإدراك من قلب وسمع وبصر فيما يرضاه الله جل وعلا من الإيمان به وتوحيده وطاعته؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2].

فينبغي على المسلم أن يقرأ القرآن قراءة فهم، وأن يسمعه سماع إجابة وطاعة؛ أن يفتح عقله وسمعه وقبل ذلك قلبه لآيات الله جل وعلا، فعندها ينتفع بها وتؤثر في روحه وقلبه بإذن الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾[3]، أي: أظن الذين كفروا واعتقدوا أنهم يصح لهم أن يتخذوا عبادي - الذين أشركوهم مع الله تبارك وتعالى كعيسى عليه السلام، وعزير عليه السلام- أولياءَ لهم من دون الله، بمعنى: أنهم ينفعوهم في الدنيا، أو في الآخرة، كلا هذا اعتقادٌ خاطئ، وهذا ظنٌ فاسد، بل سيكفرون بعبادتهم يوم القيامة ويكونون

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) الفرقان: ٤٣ – ٤٤.

(٣) الكهف: ١٠٢.

ضدًّهم كما قال جل وعلا: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[1]، ولهذا أخبر سبحانه هنا أنه قد أعدَّ لهم جهنم يوم القيامة منزلاً، قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ والنزل: مكان الضيافة، وهذا فيه استهزاء بهم، وسخرية منهم، لأن الضيافة تكون للإكرام والعناية، وجهنم ليست كذلك وإنما هي مكان عذاب، فالمراد هنا الاستهزاء بهم والسخرية منهم، وذلك كما ورد في قوله جل وعلا: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[2]، فالمعذب هنا ليس عزيزاً ولا كريماً، ولكنه قيل له ذلك للاستهزاء به والتنكيل، لقبح أفعاله وعظيم إجرامه.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾[3].

روى البخاري عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص، قال: سألت أبي -يعني سعد بن أبي وقاص-: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ أهم الحرورية[4]؟ قال: لا،

---

(١) مريم: ٨٢.

(٢) الدخان: ٤٧ – ٤٩.

(٣) الكهف: ١٠٣ – ١٠٦.

(٤) الحرورية: طائفة من الخوارج، ينسبون إلى قرية كانت بقرب الكوفة تسمى حروراء منها خرجوا على علي ﷺ.

هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذَّبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى كفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وكان سعد رضي الله عنه، يسميهم الفاسقين[1].

قال الإمام البغوي – رحمه الله- : (﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾[2] يعني: الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يرجون به فضلاً ونوالاً فنالوا هلاكاً وبواراً، كمن يشتري سلعة يرجو عليها ربحاً فخسر وخاب سعيه.

واختلفوا فيهم: قال ابن عباس وسعد بن أبي وقاص: هم اليهود والنصارى. وقيل: هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع. وقال علي بن أبي طالب: هم أهل حروراء ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ بطل عملهم واجتهادهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[3] أي: عملاً ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ﴾ بطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[4] أي: لا نجعل لهم خطراً وقدراً، تقول العرب: «ما لفلان عندي وزن» أي: قدر لخسته)[5].

---

(١) رواه البخاري (٤٧٢٨) (٦/ ٩٣).

(٢) الكهف: ١٠٣.

(٣) الكهف: ١٠٤.

(٤) الكهف: ١٠٥.

(٥) «تفسير البغوي» (٥/ ٢١٠).

وقال الإمام ابن كثير – رحمه الله – بعد أن أورد قول علي بن أبي طالب ﷺ والضحاك في أن المراد ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ أنهم الحرورية؛ قال: (ومعنى هذا عن علي ﷺ: أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا؛ فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى، وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[3].

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: نخبركم ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾[4] ثم فسَّرهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: عملوا أعمالاً

---

(١) الغاشية: ٢ – ٤.

(٢) الفرقان: ٢٣.

(٣) النور: ٣٩.

(٤) الكهف: ١٠٣.

باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1] أي: يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون. وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أي: جحدوا آيات الله في الدنيا، وبراهينه التي أقام على وحدانيته، وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[2] أي: لا نثقل موازينهم؛ لأنها خالية عن الخير)[3].

ثم ساق الإمام ابن كثير حديث البخاري عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة**» وقال: «**اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾**»[4].

قال الإمام ابن الجوزي – رحمه الله – معلقاً على هذا الحديث: (والإشارة بهذا إلى أن القدر إنما يكون بالإيمان والتقوى، وكم من عظيم الجثة لا وقع له، لأن الوقع إنما يكون بالمعاني لا بالصور)[5].

وعن زِرِّ بن حُبَيْشٍ، عن ابن مسعود، أنه كان يجتني سواكاً من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) الكهف: ١٠٥.

(٢) الكهف: ١٠٦.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٠٢).

(٤) رواه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٥) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/ ٤٣٠).

«مم تضحكون؟» قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه، فقال: «والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أحد» [1].

ثم يقول تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾[2] أي: ذلك جزاؤُهم الذي جزيناهم به بسبب كفرهم بي، واتخاذهم رسلي وآياتي التي أيَّدتُهُمْ بها؛ هزؤًا وسخرية! فلم يكتفوا بمجرد الكفر بالآيات والرسل، بل ارتكبوا عظيمة أُخرى مثلها، وهى الاستهزاءُ بالمعجزات الباهرة التي أيدت بها رسلي عليهم السلام، وبالصحف المنزلة عليهم[3].

وبعد أن ذكر الله تعالى حال الكفار والمشركين ومن سار في طريقهم، جاء لنا بحال المؤمنين فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[4].

قال الإمام الطبري– رحمه الله –: (قول تعالى ذكره: إن الذين صدقوا بالله ورسوله، وأقروا بتوحيد الله وما أنزل من كتبه وعملوا بطاعته، كانت لهم بساتين الفردوس، والفردوس معظم الجنة)[5].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣٩٩١) وقال محققو المسند (٧/ ٩٩) : صحيح لغيره.

(٢) الكهف: ١٠٦.

(٣) التفسير الوسيط (٦/ ٩٣٤).

(٤) الكهف: ١٠٧.

(٥) «تفسير الطبري» (١٥/ ٤٣٠).

وتأمل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لم يكتف سبحانه بذكر الإيمان، وإنما أردف معه العمل الصالح، فالذي يُثبت صدق دعوى الإيمان هو الأعمال الصالحة وطاعة الله جل وعلا.

و(الفردوس) هو البستان الذي يجمع ما في البساتين كلها من شجر وزهر ونبات، وهو من درجات الجنة ومراتبها العليا.

فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها**»، قالوا: يا رسول الله، أفلا ننبئ الناس بذلك؟ قال: «**إنَّ في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة**»[1].

وفي قوله ﷺ: «**فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس**» إشارة إلى أن المؤمن طموحاته عالية، وآماله كبيرة، يحب معالي الأمور ويتطلع لها، ولا يرضى بما دون ذلك، اللهم إنا نسألك الفردوس الأعلى من الجنة .

قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾[2] أي: خالدين فيها لا يطلبون عنها تحوّلاً إلى غيرها، قال ابن عباس: لا يريدون أن يتحولوا عنها كما ينتقل

---

(١) رواه البخاري (٧٤٢٣) .

(٢) الكهف: ١٠٨.

الرجل من دار إذا لم توافقه إلى دار أخرى[1].

ثم يقول ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[2].

قال الإمام البغوي - رحمه الله - : (قال ابن عباس: قالت اليهود: يا محمد، تزعم أنا قد أوتينا الحكمة، وفي كتابك ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[3] ثم تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[4]؟ فأنزل الله هذه الآية . وقيل: لما نزلت: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، قالت اليهود: أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء . فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾ سُمِّي المدادُ مِداداً لإمداد الكاتب، وأصله من الزيادة، ومجيء الشيء بعد الشيء)[5] .

وقال الإمام ابن كثير – رحمه الله - : (يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يُكتب به كلمات ربى وحكمه وآياته الدالة عليه، ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ أي: لفرغ البحر قبل أن يفرغ من كتابة ذلك ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ أي: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلم جرا، بحور تمده ويكتب بها، لما نفدت كلمات

---

(١) «تفسير البغوي» (٥/ ٢١٢) .

(٢) الكهف: ١٠٩ .

(٣) البقرة: ٢٦٩.

(٤) الإسراء: ٨٥ .

(٥) «تفسير البغوي» (٥/ ٢١٢) .

الله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

قال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[2].

فلننظر إلى عظمة من نعبد، ولننظر إلى عظمة من نعصي، ولنتقي الله تبارك وتعالى.

وقال جل وعلا في ختام سورة الكهف: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[3].

ختم الله هذه السورة المباركة بهذه الآية العظيمة، وذكر فيها النبي ﷺ كما ذكره في أول السورة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾[4].

وهنا يقول: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ والمعنى: قل أيها الرسول للمشركين وللناس جميعاً: إنما أنا بشر مثلكم من بني آدم، لا

---

(١) لقمان: ٢٧.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٠٤).

(٣) الكهف: ١١٠.

(٤) الكهف: ١.

أدعى الإحاطة بكلماته جل وعلا، ولا أعلم إلَّا ما علمني ربي، وقد أوحى إلي أنما إلهكم الذي يجب أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً هو إله واحد لا شريك له.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1] أي: فمن كان يأمل تكريم ربه إياه بالثواب وحسن الجزاء عند لقائه، فليعمل عملاً صالحاً موافقاً لشريعة الله، ولا يُرِدْ بعبادة ربه إِلَّا وجه ربه وحده لا شريك له، وهذان هما الركنان اللذان لا بد منهما لكل عمل متقبل، أَن يكون خالصاً لله سبحانه، وأن يكون صواباً وفق شريعة رسوله ﷺ[2].

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ : «**قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**»[3].

وعن أبي موسى ﷺ، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ : «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله**»[4].

---

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) التفسير الوسيط (٦/ ٩٣٨) .

(٣) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٤) رواه البخاري (٧٤٥٨).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (قال رجل: يا رسول الله، إني أقف الموقف أريد وجه الله، وأريد أن يُرى موطني - يريد أن يتحدث الناس عن شجاعته، وأن يذكروه بالمجالس وأن يفخر بهذا -، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً حتى نزلت: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[1])[2].

وعن أبي بن كعب ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**بشِّر هذه الأمة بالسناء، والرفعة، والنصر، والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب**»[3].

وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[4].

أسأل الله أن يرزقني وإياكم الإخلاص والسنة، وأن يجنبنا الشرك والرياء والبدعة، آمين.

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه.

---

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢٥٢٧) (٢/ ١٢٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٤٣٨)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٣) رواه أحمد (٢١٢٢٢) (٣٥/ ١٤٦)، والحاكم في المستدرك (٧٨٦٢) (٤/ ٣٤٦) وصححه ووافقه الذهبي، وقال محققو المسند: إسناده حسن.

(٤) رواه مسلم (١٧١٨).

الفهرس

المقدمة ٥
فضائل سورة الكهف ٧
فواتح سورة الكهف ١٣
قصة أصحاب الكهف ٢٩
قصة صاحب الجنتين ٦٥
مثل الحياة الدنيا وحال الآخرة ٧٩
عداوة الشيطان للإنسان ٩١
قصة موسى مع الخضر عليهما السلام ١٠٥
قصة ذي القرنين ١٢١
ختام سورة الكهف ١٤٥
الفهرس ١٥٩



صدر للمؤلف

- الموسوعة الجامعة في الخطب النافعة (٤ مجلدات).
- الخطب الأندلسية.
- خطب وطنية .
- ومضات في تزكية النفس .
- الخشوع المفقود .
- تأملات في سورة الفاتحة .
- تأملات في فواتح سورة البقرة .
- تأملات في آية الكرسي .
- عبر ودلالات في سورة يوسف .
- لمحات من سيرة الصديق .
- اليوم الآخر ، مشاهد وتأملات .
- إضاءات حول تدبر القرآن .
- الإمام الرافعي ، عالم العرب والعجم .
- التجويد الميسر .
- الرحمة المهداة ﷺ ، محبته ونصرته .
- رمضان ، فضائل وأحداث .
- علامات الساعة الصغرى والكبرى .
- وقفات حول موسم الحج .
- تأملات في سورة الزلزلة.
- آداب قيادة السيارة.
- المباحث المرضية في المسائل الفرضية.
- عبر ودلالات من أحداث السيرة النبوية (العهد المكي)
- تأملات في سورة الكهف